زيارة الرحالة الإسباني علي «بك» العباسي لطرابلس في أوائل القرن التاسع عشر

جاسوس تظاهر بالإسلام وداوم على الصلاة في جامع «طنجة»؟! وحج ورسم معالم مكة ؟!

● خالد محمد الهدار

هذه دراسة تحليلية مقارنة واستقصائية مستفيضة ومهمة في موضوعها الذي يتناول حياة ونشاط أحد الرحالة الاوروبيين الذين مهدوا للاستعمار وتظاهروا بالإسلام وعملوا جواسيس لايفوتهم التقاط مايساعد دولهم الطامعة في الأراضي العربية من المغرب إلى المشرق وذلك بتناول كل مافيها من جوانب تتعلق بالحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والحضرية إلى جانب ماتركه لنا هذا الرحالة من معلومات وفيرة وضخمة عن طرابلس في فترة مضى عليها نحو قرنين بما يؤكد أن عين الجاسوس هي التى كانت ترى وترصد وتسجل ولاتترك شاردة أو واردة - كما يقولون - ولذا فإننا - على الرغم من طول الدراسة ننشرها كاملة ودون تجزئة متجاوزين بذلك إحدى قواعد النشر التى تتبعها «تراث الشعب» وهي تجنب الإطالة قصد إفساح المجال أمام أكبر مجموعة من البحوث والدراسات في كل عدد «التحرير».

علي بك العباسي هو الاسم الذي اشتهر به الرحالة الاسباني (دومنجو باديا ليبليك) عندما قام برحلته عبر اقطار الوطن العربي مابين 1803 - 1807 متخفيا في زي عربي ومتقمصا شخصية عربية ومدعيا الاسلام ، وكانت طرابلس من بين المحطات التي زارها وترك انطباعات حسنة حولها ، وتتعرض هذه الدراسة لتلك الانطباعات بالوصف والدراسة والتحليل والمقارنة .

ومن الضروري ان يتم التعرف على حياة هذا الرحالة قبل القيام برحلته المشهورة وبعدها ، ولد هذا الرحالة في برشلونة من أب اسباني وأم من أصل بلجيكي في 1-4-1767 ، ولايعرف الكثير عن صباه وشبابه والمستوى التعليمي الذي وصل اليه لكنه كان شغوفا بتعلم الرياضيات والعلوم الطبيعية والجغرافيا والقراءة والاطلاع في تلك العلوم ، ويبدو ان مستواه التعليمي في تلك العلوم ومقدار تحصيله منها مكنه من أن يعين في وظيفة مالية في غرناطة في الرابعة عشرة من عمره ، وقبل أن يصل سن العشرين توفي والده



الرحالة علي بك في لباسه العربي

وخلفه في وظيفته في مدينة البيرة بمقاطعة المرية ، وقد تزوج في تلك المدينة من فتاة في عام 1790 ثم انتقل إلى العمل في قرطبة التي امضى بها أربع سنوات وتركت انطباعا حسنا لديه عن الحضارة الإسلامية ، وقد تقرب خلال هذه الفترة من رئيس الوزراء الاسباني المدعو (جودوي) وقدم له في 8-4-1801 مذكرة توضيحية عن مشروع رحلته إلى إفريقيا مشفوعا بأهداف سياسية وعلمية من ورائها **على أن يسمح له بالتظاهر بالإسلام ويتخفى باسم عربي** ، وقد قسم رحلته إلى ثلاث مراحل وجهت نحو افريقيا على وجه الخصوص وكانت طرابلس الغرب آخر محطة في رحلته ، وعلى الرغم من حماس رئيس الوزراء وملك اسبانيا لهذا المشروع الاستعماري إلا أن مجمع التاريخ الملكي وجد الكثير من الثغرات في مشروعه وبعد إلحاح هذا الرحالة وتأييد رئيس الوزراء له وافقت الحكومة الإسبانية على تقديم الدعم المادي والمعنوي لهذه الرحلة واستعدادا لها انطلق إلى باريس في 7-5-1802 ثم إلى لندن للاتصال بالهيئات العلمية وتجميع المعلومات عن تلك المناطق التي يرغب في زيارتها والتزود بالأدوات العلمية التي يحتاج إليها في أثناء رحلته حتى تمكنه من أداء مهمته على أكمل وجه والغريب أنه في لندن قام بعملية ختان لنفسه ليؤكد شخصية علي بك العباسي التي تنكر فيها ، وقد رجع إلى اسبانيا في 23-4-1803 حيث تراجع رفيقه (روخاس) عن المضي في الرحلة ومكث في قادس ، لكن هذا لم يمنعه من البدء في رحلته وحده بل يبدو أنه فرح بتخلف زميله، ذلك أنه كان يرغب في القيام بالرحلة بمفرده ، وبدأ رحلته من قادس في 29- 7- 1803 حيث **انتقل إلى طنجة وظهر فيها بشخصية علي بك السوري الأصل والمسلم الذي تغرب في أوروبة دارسا للعلوم حتى نسي لغته العربية لكنه مازال محافظا على دينه وقد قام في طنجة بأفعال عدة تؤكد إسلامه مثل مداومته على الصلاة في المسجد الجامع بالمدينة وتوزيع الصدقات وغيرها** ، وقد وجد أمامه الكثير من التوصيات من فرنسة وبريطانيا واسبانيا إلى قناصلها في طنجة لمساندة موقف علي بك وعدم الكشف عن حقيقته ودعمه ماديا ومعنويا ، ومكث بها حتى شهر فبراير من عام 1804 ثم انتقل إلى مدينة فاس وقد بقي بالمغرب عدة سنوات متنقلا بين مدنها حتى يعد تقريرا عن أحوال المغرب السياسية والعسكرية ويجهز خطة تمكن اسبانيا من الاستيلاء على المغرب لكن الخطة التي أعدها لم يوافق عليها ملك إسبانيا بسبب كثرة ثغراتها ولم تكن لإسبانيا القدرة على تحقيقها ، وبعد أن أخفق علي بك في تحقيق ما يطمح إليه في المغرب عاود التفكير في رحلته بعد أن تحصل على الدعم المادي من الملك لكن الشكوك التي ساورت باشا (حاكم) مراكش ألغت التصريح الذي تحصل عليه لاختراق الصحراء إلى قلب أفريقيا فقرر أن يرحل إلى مكة ، لكن **الحكومة الاسبانية طلبت منه ان يجهز خطة جديدة لاحتلال المغرب بسبب الظروف السياسية التي استجدت في المنطقة وقد منح رتبة عقيد (بريجادير)** في الجيوش الملكية الإسبانية وكان ذلك في 16-8- 1804 ، **وقد شك المغاربة فيما يقوم به علي بك فأجبر على ترك المغرب** في 13-10- 1805ف فاتجه إلى طرابلس التي وصلها في 9- 11 من العام نفسه ، ورحل منها إلى الاسكندرية في 26-1- 1806 التي لم يصل إليها إلا في 12-5- 1806 حيث مكث في قبرص أكثر من شهرين ، أما الاسكندرية فقد بقي بها حوالي ستة أشهر ثم انتقل إلى القاهرة حيث استقبل استقبالا حافلا من قبل شيوخها لكنه غادرها إلى مكة للحج ثم عاد إلى مصر ومنها إلى فلسطين ثم إلى دمشق التي مكث بها اسبوعا **ويبدو أنه خلال هذه الفترة كان مطاردا من حاكم مصر محمد علي الذي كشف عن شخصية علي بك الحقيقية فوجد المذكور في القسطنطينية خير ملجأ له** ثم غادرها في 7-12-1807 ف ، متجها إلى اسبانيا التي وصلها بتاريخ 9-5-1808 بعد ان مر بفيينا وميونيخ وباريس ، وقد وجد بلاده قد احتلت من قبل فرنسة لكنه أولى اهتمامه بنشر نتائج رحلته التي اصطبغت بصبغة علمية منذ مغادرته المغرب ونهاية حلمه في احتلال اسبانيا للمغرب ، وقد وقف معه صديقه السابق (جودوي) رئيس الوزراء الاسباني الذي قدمه بدوره إلى نابليون الذي اقترح عليه ان يذهب إلى باريس ويعد رحلته للنشر ، لكنه نشر في

مدريد ملخصاً عن حياته ورحلته في 23-7. 1808 ولم يرحل إلى باريس إلا في نهاية عام 1812، وقد تمكن من طبع رحلته في عام 1814 حيث صدرت بالفرنسية في ثلاثة اجزاء تحت اسم " رحلات علي بك العباسي في افريقيا وآسيا خلال الأعوام 1807 - 1803" وقد أهداه إلى لويس الثامن عشر ملك فرنسة ، وضم الكتاب مجموعة كبيرة من الخرائط والرسوم التي نفذها الرحالة بنفسه ، وفي عام 1816ف ظهرت الترجمة الانجليزية للكتاب في جزئين تحت اسم " رحلات علي بك في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسورية وتركيا بين الأعوام1803-1807" كما ترجم الكتاب إلى الألمانية ثم إلى الايطالية في عام 1816 ، اما في الاسبانية فإن الكتاب لم يظهر إلا في عام 1836وهذه أول مرة يظهر فيها الكتاب باسم المؤلف الحقيقي أي (دومنجو باديا) وليس بالاسم المنحول علي بك العباسي مثلما ظهر في التراجم السابقة ، ولم ينس هذا الرحالة مشاريعه الاستعمارية في احتلال افريقيا فعرض بعض خططه على فرنسة لكنه لم يجد تشجيعا منها ، ثم اقنع الفرنسيين بدعمه ماليا ومعنويا في الرحلة الجديدة التي يعتزم القيام بها إلى الشرق عن طريق القسطنطينية وقد تنكر في هذه الرحلة تحت اسم (الحاج علي أبو عثمان) وقد وصل محطته الاخيرة في 19-3- 1818 ، وقد ظهر في حلب يوم 23-4-1818 ثم وصل إلى دمشق في 7-4من العام نفسه ، واثناء طريقه إلى مكة أصابه مرض الدوسنتاريا الذي لم يمهله طويلا فمات في مطلع شهر سبتمبر من عام 1818 ، وربما مات هذا الرحالة مسموما من قبل الانجليز لعرقلة مشروعه الذي كان ضد مصالحهم في الهند ، وقد دفن علي بك وفقا للطريقة الاسلامية في قلعة البلقاء جنوب شرق الاردن ، وهكذا طويت صفحة من حياة رحالة أوروبي عاش في ثوب شخصيتين فهو الأوروبي المسيحي ذو الاطماع الاستعمارية في الشرق ، والمسلم بزيه الشرقي واسمه العربي عند تجواله في المدن العربية الاسلامية في الشرق لتحقيق اغراضه الاستعمارية ، ويبدو ان هذا الرحالة كان يعاني من هذه الازدواجية في حياته فلم يطب له العيش في اوروبة بعد رحلته الأولى إلى الشرق فعاد إلى الشرق من جديد وهو في سن يتعدى الخمسين ليلاقي حتفه في الأماكن التي احبها وعشقها (يراجع عن حياة هذا الرحالة : ميكاكي 1933ص ، ص 632 - 642، وروماني 1851ص . 11-24 ، مكي ، 1988ص .ص - 172. ص198)

وما يمكن قوله حول نتائج هذه الرحلة ان الشخصية العربية الاسلامية التي تنكر فيها هذا الرحالة، وسعة اطلاعه وثقافته مكنته من ان يسبر اغوار المجتمعات العربية التي زارها وينقل صورة حية عن تلك البلاد والمجتمعات في مطلع القرن التاسع عشر ، وتبرز وقائع رحلته مواهبه الفذة **فهو سياسي يكتب عن الاحوال السياسية للمدن التي زارها والشخصيات المهمة التي قابلها خاصة في المدن التي مكث بها فترة طويلة مثل المغرب ومصر فقد حلل الكثير من الامور المتعلقة بالسياسة لتحقيق الهدف من وراء رحلته في احتلال المغرب ، وهو جاسوس يرصد بمرقاب دقيق احوال تلك البلدان العسكرية ويسبر مواطن الضعف والقصور في النواحي العسكرية وقد تجلى هذا بوضوح في المغرب التي كان يمهد لاحتلالها** ، وهو باحث في الانثربولوجيا الاجتماعية برصده للكثير من الظواهر الاجتماعية المتعلقة بالحياة العامة وعادات المجتمعات التي تعايش معها وتقاليدها بما فيها الكثير من الامور الدينية التي كانت مهمة للاوروبيين الذين لايعرفون عنها الكثير أو معرفتهم مشوشة تجاه الكثير من جوانب الحياة والمعتقدات الاسلامية ، ولعل اهم مآثره في هذا الجانب وصفه لمكة وشعائر الحج كيوم الوقوف بعرفة وغيرها من الشعائر الاخرى على الرغم من وجود بعض الاخطاء فيما ذكره ، وهو مؤرخ وشاهد عيان على الكثير من الاحداث السياسية التي مرت بها بعض البلاد التي زارها وسجل بأمانة تلك الاحداث مثل وضع مصر قبل محمد علي ومحاولة الانجليز احتلال مصر وهزيمتهم ، كما كان شاهد عيان على الحركة الوهابية والتغيرات الدينية التي أحدثتها في شبه الجزيرة العربية ، **وهو معماري اهتم بالعمران الحضري فوصف المدن وشوارعها ومخططاتها واهم مبانيها مثل المساجد**

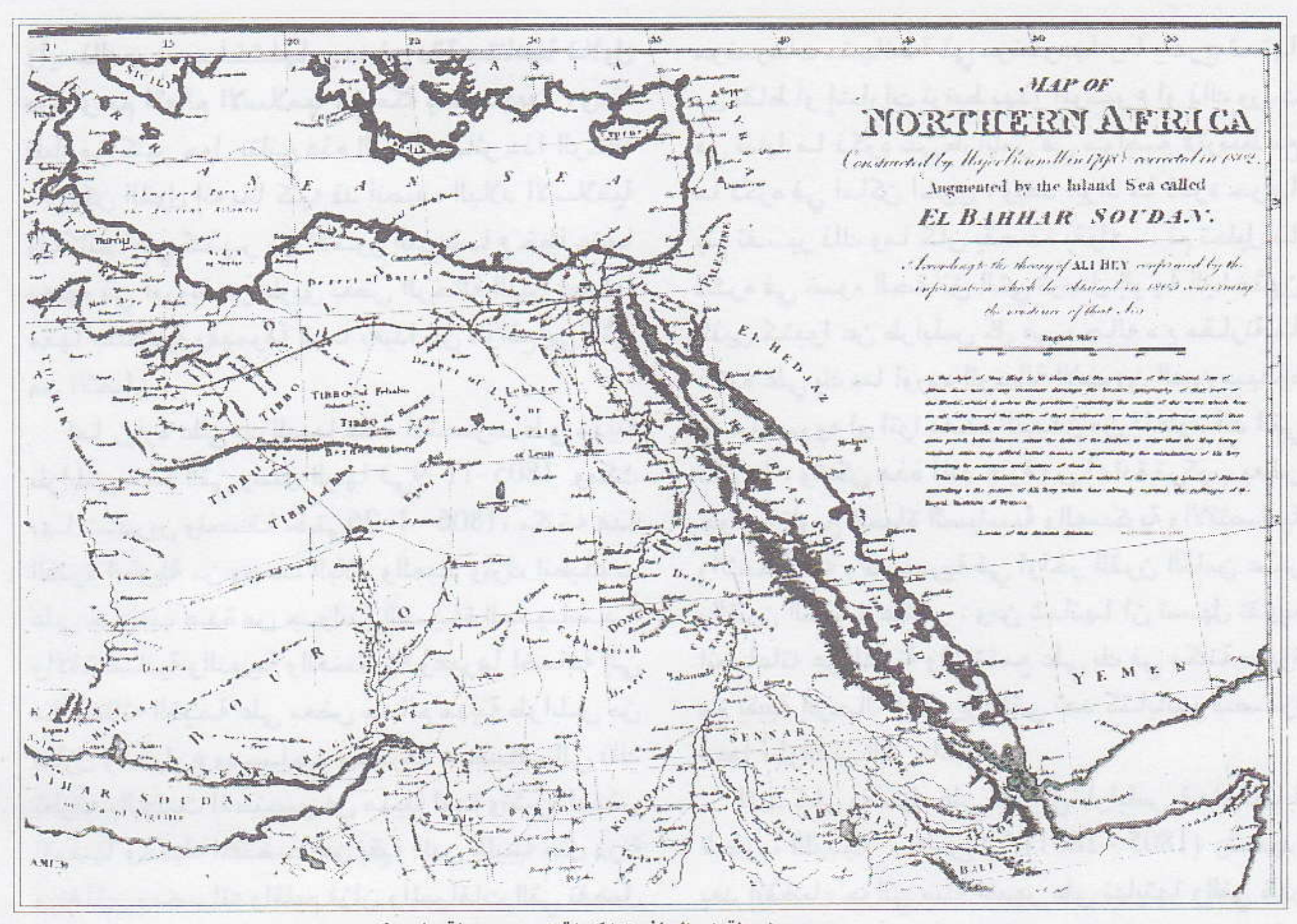
وأيد ذلك برسوم اختطها بيده في دقة متناهية فلاول مرة ترسم المعالم الاسلامية في مكة بدقة شديدة ، وهذا قليل من كثير حول نتائج هذه الرحلة ومآثر هذا الرحالة ، ويمكن القول إنه بما كتبه قد انصف البلاد الاسلامية وسكانها في كثير من الأمور التي شاع خطأ عنها وعنهم في اوروبة عن طريق بعض الرحالة الذين تعاملوا معها بسطحية وفهموها فهما بعيدا عن الواقع في كثير من الاحيان .

اما زيارة علي بك لليبيا فقد اقتصرت على مدينة طرابلس فقط التي وصل اليها في 9-11-1805 ومكث بها شهرين ونصفا حتى 26-1- 1806، مكنته هذه الفترة الطويلة من وصف البلاد والعباد وترك انطباعات على جوانب عدة من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والعسكرية وغيرها اضافة إلى ملاحظاته القيمة على بعض معالم مدينة طرابلس من منازل وشوارع ومساجد وغيرها ، يضاف إلى ذلك تطرقه بالحديث المختصر عن مدينة لبدة ونشره لبعض نقوشها وحديثه المقتضب عن بقية المدن الليبية مثل درنة وبنغازي ومصراته واقليم فزان والمسافات التي تفصل تلك المناطق وغيرها عن مدينة طرابلس وعن بعضها البعض (ليلبيك 1816. ص 244 - 242، ميكاكي 1933-ص 632- 630) لكن يشوب هذه المسافات الكثير من الاخطاء .

وقبل وصف إنطباعات علي بك عن مدينة طرابلس من الضروري استهلال الموضوع بتلميح إلى أنني في دراستي هذه لم تكن لي الريادة في استعراض ما كتبه هذا الرحالة عن مدينة طرابلس فقد سبقني إلى ذلك رودلف ميكاكي في دراسته التي نشرها في العدد الثامن من مجلة المستعمرات الايطالية (Rivista Delle Colonie Italiane عام 1933 (ميكاكي 1933) كما أنني لاأغفل الملخص الذي أورده خليفة التليسي في كتابه حكاية مدينة (التليسي 1974ص ص- 148 150) عما كتبه علي بك عن طرابلس ، ولكن قد تكون الريادة لي في المنهجية التي اتبعتها في هذه الدراسة وتتركز المنهجية في ايراد ما ذكره هذا الرحالة عن المدينة بعد ان صنفت المادة التي اوردها إلى عدة موضوعات متجانسة في موضوعها وما يندرج تحتها من نقاط أو إشارات ترتبط بهذا الموضوع أو ذاك وردت في ثنايا ما ذكره عن طرابلس في مواضع لاترتبط مع ما ذكره في اماكن اخرى ، وبعد ايراد ما ذكره حرفيا يتم تفسير ذلك وما كان يقصده بقوله . . ثم تحليل ما ذكره في ضوء الحقائق التي توصل إليها الباحثون الذين كتبوا عن طرابلس كل في مجاله مع مقارنة ما ذكره علي بك بما أورده الرحالة الآخرون الذين سبقوه أو عاصروه أو أتوا بعده للتيقن من المعلومات التي ذكرها ، وتمكن هذه المنهجية من إعادة تركيب بعض جوانب تاريخ الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والحضرية في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، ومن شأنها أن تسهل تقويم انطباعاته عن المدينة وان تضع علي بك في مكانة مميزة مع بقية الرحالة الاخرين التي تعد كتاباتهم مصدرا مهما لطرابلس القرمانللية .

لقد كان وصول علي بك إلى طرابلس غداة نهاية الحرب الليبية - الامريكية (1801 - 1805) وتحديدا بعد إنقضاء حوالي ستة اشهر على نهايتها والتي ظهر منها باشا طرابلس يوسف القرمانللي (ص1795-1832) منتصرا في تلك الحرب معززا موقفه وموقف بلاده كقوة متنامية في البحر المتوسط (يراجع عن تلك الحرب : تكر ، ب ت ، ديردين 1976ص . ص151-210)، وبدأ في فرض سيادته على انحاء ليبيا لتحقيق الوحدة السياسية والتماسك بين أطراف البلاد التي نجح فيها إلى حد كبير .

يصف علي بك وصوله إلى شاطئ طرابلس في يوم السبت 9-11- 1805والاجراءات التي اجريت للسفينة أو الفرقاطة الطرابلسية التي يقودها الريس عمر وكان قد استقلها من بلدة العرائش بالمغرب ، حيث اطلقت سفينتهم عدة طلقات من مدافعها بعد دخولهم الميناء وكيف ردت عليهم مدافع القلعة ترحيبا بهم وهذه من التقاليد المتعارف عليها في هذه المناسبات (يراجع عن هذا التقليد : القرمانللي 1983ص ص (167-168)، وكيف تم ارسال قارب الحكومة لاستقبالهم الذي صعد منه العديد من الاشخاص لاستلام تصريح الدخول من



جزء من خريطة شمال إفريقيا كما تبدو زمن رحلة علي بك

القبطان أو الريس ثم واصلت السفينة التقدم حتى تم رسوها في الساعة الثالثة بعد الظهر على رصيف الميناء ، ومكث علي بك على ظهر السفينة يوم الاحد بالكامل حتى تم تجهيز منزل له ، وقد هبط من السفينة في منتصف نهار يوم الاثنين الموافق 11 / 11من العام نفسه بسبب أن الريس عمر لم يستطع تامين مسكن له ، وخلال فترة بقائه على ظهر المركب لم يكن مرتاح البال تماما فهو قد وصل طرابلس مطرودا من المغرب وقد شك علي بك أن وزير سلطان المغرب المدعو محمد السلاوي حاكم بلدة العرائش قد كتب إلى باشا طرابلس يحذره منه ، كما انه لم يثق في احد من المسافرين ولا في الريس خوفا منهم على افتضاح امره ، لكنه بعد ان هبط على أرض طرابلس أحس بالراحة خاصة بعد أن تحصل على مسكن استقر فيه (ليبليك 1816ص . ص231-233)، وانطلاقا من هذا المنزل الذي سيأتي الحديث عنه بدأ علي بك في تجميع معلوماته وتسجيل انطباعاته عن المدينة والتي صنفت إلى الموضوعات الاتية على النحو الاتي :

أولا : مدينة طرابلس :

1- الموقع والطقس :-

يحدد علي بك موقع طرابلس وفقا لخطوط الطول ب 11درجة و 8دقائق و 30ثانية للشرق من باريس ، ووفقا لخطوط العرض ب 32درجة و 56دقيقة و 39 ثانية شمالا ودرجة الانحراف المغناطيسي بـ 18درجة و 41دقيقة وثانيتين غربا (ليبليك 1816ص . 233) ويبدو ان تحديده لموقعها كان دقيقا إلى حد كبير في ظل امكاناته المحدودة فمدينة طرابلس تقع شمال خط الاستواء عند خط العرض 32درجة و 56دقيقة وعلى خط طول 13درجة وعشر دقائق شرقي خط جرينيتش (تراجع الخريطة التي ارفقها علي بك بكتابه) وعلى الرغم من هذا فان ميكاكي يرى ان الفرق بين قياسات علي بك والقياسات الحديثة لايعدو 17دقيقة و 58ثانية

بالنسبة لخطوط الطول ودقيقتين و 23ثانية بالنسبة لخطوط العرض (ميكاكي 1933ص . 620هامش (1) وهذا فرق هين لايحسب وفقا للآلات البسيطة التي كانت متوفرة زمن علي بك . وهذا يؤكد دراية علي بك بالجغرافيا وقياس مواقع المدن وفقا لخطوط الطول والعرض ، ويلاحظ انه اعتمد على موقع باريس لتحديد موقع طرابلس بالنسبة لخطوط الطول والحقيقة أن ديدنه كان الاعتماد على موقع مرصد باريس لتحديد موقع بقية المدن التي مر بها في رحلته ، ويذكر علي بك ان العزلة التي وضع نفسه فيها في طرابلس بسبب خوفه من افتضاح امره لم تمكنه من التوسع في ابحاثه المهتمة بالنواحي الفلكية حيث إنه لم يستطع الصعود أعلى سطح بيته للقيام بها لذا فقد اختار مكانا محددا في رواق منزله لممارسة نشاطه الفلكي وتحديد موقع طرابلس وفقا لخطوط الطول والعرض ، ويرى ان نتائجه كانت مرضية إلى حد كبير وهي بالفعل كذلك .

كما اهتم علي بك باحوال الطقس في طرابلس ويذكر انه **دافئ (حار) صيفا وفقا لموقع المدينة طبقا لخطوط العرض ويكون ربيعيا دائما في بقية فصول السنة ، إلا انني صادفت اثناء اقامتي بعض الايام الباردة جدا ويعد هذا استثناء** (ليبليك 1816 ص . 241-242، ميكاكي 1933ص 628)) ، وقد سجل اقصى درجات الحرارة وادناها اثناء بقائه في طرابلس وذلك بمقياس ريومور او رومير Reaumur))وكانت اقصاها 16.1 درجة في يوم 12- 2- 1805عند الساعة الواحدة وعشرين دقيقة ، أما ادنى الدرجات التي سجلها فكانت 8.4 درجات اثناء الليل والصباح ، وكانت الرياح السائدة آنذاك هي الرياح الغربية الممطرة في كثير من الاحيان ، وقد سجل اقصى درجة للرطوبة الجوية ب 100درجة . هذه هي الملاحظات الجوية التي سجلها علي بك بأدواته والتي يبدو أنها دقيقة عند مقارنتها بالأحوال الجوية لمدينة طرابلس حاليا لاسيما خلال شهري نوفمبر وديسمبر وهي الفترة التي زار فيها المدينة ، (يراجع بلدية طرابلس ص ص -24-25 عمورة 1993ص. ص 35-37) ولكن تعوزه الدقة عندما يذكر ان بقية فصول السنة ربيع دائم ذلك انه لم يطلع عن كثب عن أحوالها الجوية فيما عدا الفترة التي مكث فيها في المدينة إلا اذا كان يشبه هنا شتاء طرابلس بربيع اوروبة فهذا جائز لكن هذا لاينطبق على بقية فصول السنة .

2- مصادر المياه :

اما عن مصادر المياه بالمدينة فهو يذكر انه **لاتوجد ينابيع ولا انهار بمدينة طرابلس ، والسكان مجبرون على الشرب من مياه الامطار التي يحفظونها في صهاريج ملحقة بكل منزل ، ولحماماتهم ولأماكن وضوئهم ولاستعمالات أخرى ، كما يستخدمون الماء الأجاج الذي يأخذونه من الآبار** (ليبليك 1816ص. 234، ميكاكي 1933ص . 621) وبالفعل فان المصدرين الرئيسين للماء بالمدينة هما مياه الامطار ومياه الآبار حيث تزود المنازل بصهاريج أو مواجل تحفر في الأفنية السماوية تجمع فيها مياه الامطار عن طريق الموازيب التي تنساب منها المياه المتجمعة على سطوح تلك المنازل وكانت تتسع لحوالي 20مترا مكعبا من المياه (عمورة 1993ص 347)، وقد شاهد تلك المواجل الاسير الجراح البروفنسالي (جيرار) أثناء أسره بطرابلس ما بين 1676 - 1668 (التليسي 1984 ص 93)) وهذا ايضا ما ذكره من قبله الرحالة الهولندي (مرمول) في اوائل القرن السادس عشر (والآنسة توللي في 1783 (زيادة 1968ص . 262 - 263، بلدية طرابلس ، ص . 45، توللي رسالة بتاريخ 9-10-1783 ص . 89) كما ذكر الطبيب الأمريكي الأسير (جوناثان كودري) في 1804أنه كان يقدم له مع بقية الأسرى الامريكيين مياه المطر للشرب (كودري 1982ص . 44))ولم تقتصر الصهاريج على المنازل فقط فقد زودت بها الحمامات والفنادق والمساجد ، وبسبب أن مياه هذه الصهاريج لم تكن لتكفي إلى نهاية فصل الصيف فقد تم اللجوء إلى حفر الآبار والاستفادة من المياه الجوفية حيث كانت تباع مياهها بواسطة السقائين ولعل أشهر تلك الآبار هو بئر بومليانة الواقع إلى الجنوب من المدينة (الأنصاري 1961ص . 36) ، ويبدو أن الآبار ذوات الماء الأُجاج التي يتحدث عنها

علي بك هي تلك المحفورة بالمدينة ولم تكن مياهها عذبة بسبب قربها من البحر وهذه الآبار هي التي أشار اليها الأسير الجراح البروفنسالي جيرار مابين 1668-1676 بقوله إن الكثير من المنازل كانت توجد بها آبار (التليسي 1985ص . 93) وقد تكون بعض مياه تلك الآبار نتنة الرائحة وفقا لشهادة الآنسة توللي (توللي ص . 89)) ولعل من نافلة القول أن يذكر أنه كانت توجد بطرابلس ساقية تمتد لنصف ميل تجلب المياه إلى القلعة يصفها الفيسي ميلانوفيتش في عام 1765 بانها مقامة على أقواس بديعة ذات منظر خلاب يبلغ ارتفاعها عن الارض اثنى عشر قدما وقام برسمها ايضا (كابوفين 1988ص . 300، يراجع عن صورتها: بازامة ، ب ت . لوحة رقم 2بين ص . (80-81) - وقد بلغ عدد أقواسها مائة وستة وخمسين قوسا ، وهذه الساقية يبدو انها لم تكن موجودة عند زيارة علي بك للمدينة فقد ذكرت الآنسة توللي أنها كانت خربة في عام 1792 (توللي رسالة بتاريخ 5- 10- 1792ص . ص 515) ويرجح أن المياه التي تنقلها هذه الساقية تأتي من بئر عذبة كانت تقع في مزرعة الباشا (قصر الشعب اليوم) ويقع هذا البئر تحديدا عند السفارة الروسية الآن (الباروني 1988ص . 132) .

3- السكان والمجتمع :

وقد حصر علي بك **العدد الإجمالي لسكان المدينة بحوالي اثني عشر أو خمسة عشر الفا ، ويتكون السكان من العرب والاتراك واليهود** وبهذه المناسبة يذكر **ان الطاعون قد انقص كثيرا عدد سكان المدينة فهو قد قضى في الغالب على أسر بكاملها ومازال هناك بعض المنازل مهجورة أو مهدمة بسبب هذه الكارثة** (ليبليك 1816ص . 234، ميكاكي 1933ص . 621) وينبغي التعرض لهذا الوباء الذي لم يكن علي بك شاهد عيان له والأمر خلاف ذلك مع الآنسة توللي (توللي رسالة بتاريخ 29- 4- 1785وغيرها من الرسائل ص . ص183-231)) ويبدو انه استقى معلوماته عنه من قناصلة المدينة ولاحظ آثاره في المنازل المهدمة والمهجورة على الرغم من انقضاء عشرين عاما على ذلك الطاعون الذي حدث مابين 1785- 1786ف أي في عهد حكم علي باشا والد يوسف القره مانللي ، وقد كانت عاقبة هذا الطاعون مخيبة كما تصورها الآنسة توللي حيث بدت المدينة مقفرة تماما من السكان ومنازلها خاوية وجثث الضحايا بقيت في منازلها ولم تجد من يدفنها ولا حتى من يذرف عليها دمعة واحدة هذه صورة المدينة كما بدت للآنسة توللي في نهاية شهر يوليو من عام 1786بعد نهاية الطاعون (توللي رسالة بتاريخ 10-9-1786ص . ص 262- 263) وهي نفس الصورة الكئيبة التي نقلها نائب القنصل الفرنسي لطرابلس المدعو فالليير (فيرو 1994ص . ص - 338 339) **ان هذه الكارثة ادت إلى تناقص اعداد السكان بشكل كبير فان ضحاياه قدرت بسبعة وعشرين الفا في طرابلس وما حولها ، ولهذا ليس غريبا ان يذكر علي بك عدد سكان المدينة ما بين اثنى عشر إلى خمسة عشر الفا بسبب الطاعون ومانتج عنه من هلاك الآلاف وهجرة الكثير خارج المدينة .**

ويتكون سكان طرابلس من ثلاث فئات هم العرب أي اهل طرابلس (سكان البلاد الاصليون) وهم الطبقة المحكومة ، ومن الاتراك وهم الطبقة الحاكمة الدخيلة على السكان وكان يجمعهم بالطبقة الاخرى الاسلام وحدث تزواج بينهم مما نتج عنه ما يعرف بالكوارغلية ، ويذكر علي بك أن الاتراك قد سيطروا على الحكومة بالكامل وصبغوها بطابعهم مما أدى إلى تقدم المدنية هنا مقارنة بالمغرب ، وقد كان هؤلاء الاتراك يستخدمون الحرير والخيوط الذهبية والفضية في صناعة ملابسهم (ليبليك 1816ص . 234، ميكاكي 1933ص 621)) وهذا يعكس الوضع المالي الحسن لهذه الطبقة بسبب سيطرتها على مقدرات البلاد على حساب اهل الوطن الذين عاشوا في ضنك من العيش انعكس حتى على الملابس التي يرتديها اغلبهم (للمقارنة بين ملابس الطبقتين يراجع : توللي . ص . ص 81، 100، 113- 114، 129، شلابي . 1990اماكن متفرقة) وقد كانت هذه الملابس تنتج محليا منذ مطلع القرن التاسع عشر في سوق خاص بها هو سوق الرباع (حامد 1992 أ .

ص . ص122– 123،) وقد سكن اغلب افراد الطبقة الأولى في محلة كوشة الصفار ومحلة حومة غريان وقلة منهم سكن في محلة باب البحر .

والطبقة الثالثة هم اليهود أو من يدين باليهودية من سكان المدينة والطبقة الاخيرة كانت ذات وضعية مميزة سواء من حيث انعزالهم في حي خاص بهم بالمدينة يعرف باسم الحارة (الحي الشمالي الغربي من المدينة القديمة) حيث توجد معظم متاجرهم ، أو من حيث مستواهم الاقتصادي الذي كان يفوق بقية طبقات سكان المدينة بسبب سيطرتهم على الأمور التجارية في طرابلس لهذا فقد تمتعوا بمكانة مميزة لدى القرمانليين حتى ان باشاواتهم كانوا يقترضون منهم مثل علي باشا ويوسف باشا (يراجع عن تاريخ اليهود في طرابلس : حامد 1992ب ، ص . 73– 83، حامد 1999ص . ص65– 80) ويذكر علي بك عند زيارته للمدينة ان اوضاعهم كانت افضل حالا من يهود المغرب ، وكان يبلغ عددهم آنذاك ألفي نسمة وهم يرتدون ملابس لاتختلف كثيرا عن ملابس المسلمين حيث تميزوا بارتداء قبعات واحذية سوداء وكانت عمامتهم زرقاء اللون ، وقد ذكر الرحالة ليون في عام 1818انه لايسمح لهم بارتداء الملابس المطرزة – وهذا حدث بعد عام 1800في عهد يوسف باشا – ولايرتدون إلا العمائم الزرقاء (لايون 1993ص . 22، ص . 12من الاصل الانجليزي) ، وقد ميز الرحالة ادوارد راي في عام 1877ف الطبقات الثلاث السالفة الذكر من خلال نوعية غطاء الرأس ولونه فالعرب غطاء رأسهم ابيض اللون ويرتدي الاتراك الطرابيش اما اليهود فيرتدون العمائم الزرقاء (راي 1968ص 38) أما تقدير علي بك لعددهم بألفي نسمة فيبدو صحيحا إلى حد بعيد ، فقد ذكر الأسير الجراح جيرار ان عددهم كان الفا ومئتي نسمة مابين 1668– 1676ف فترة أسره بالمدينة (التليسي 1984ص . 100) ويذكر في هذا الصدد ان ما جاء في قول الفيسي ميلانوفيتش في عام 1765بان عدد اليهود كان حوالي الف عائلة (كابوفين 1988ص . 301) يعد صحيحا ايضا ثم تناقص عددهم بسبب طاعون عام 1786حيث قضى ذلك الوباء على نصفهم (تولي ، ص . 208، فيرو 1994ص . 338ديردين 1976ص . 109)ويذكر علي بك ان من بينهم حوالي ثلاثين ذوي مكانة اقتصادية مميزة والبقية كانوا عمالا يعملون في مهن مختلفة ، لعل اوضعهم الحمالين مثلما شاهدهم الطبيب الاسير كودري في 4–3– 1805ف (كودري 1982ص . 73) وهناك الصاغة الذين يعملون في صياغة المعادن الثمينة وتشكيلها ، وقد حوت يوميات حسن الفقيه الكثير من الاشارات حول اليهود واعمالهم وعلاقتهم بالنواحي التجارية (حسن 1984، اماكن متفرقة) وذلك في ظل رعاية القنصلية البريطانية ليهود طرابلس وقتئذ ، وتؤكد توللي سيطرتهم على التجارة (توللي ص . 162) كما يذكر علي بك ان اليهود قد سيطروا على تجارة طرابلس مع اوروبة ، وكانوا يمارسون عبادتهم ليس في كنيس واحد بل في ثلاثة (ليبليك 1816ص . 239، ميكاكي 1933ص . 626) لعل من بينها الكنيس الذي مايزال قائما في شارع الربي نسيم بالمدينة القديمة ، وهذا يؤكد التسامح الديني الذي كانت تشهده طرابلس في ذلك الحين .

ولم تكن الطبقات الثلاث السالفة الذكر هي الوحيدة التي كانت تسكن طرابلس فقد أشار علي بك إلى **وجود بعض الاوروبيين منهم قناصلة الدول الأوروبية المختلفة وتاجر فرنسي أخو القنصل وصانع سفن إسباني وطبيب من مالطا ، وصانع ساعات سويسري ، وقد كان هؤلاء الأوروبيون محبوبين ويلقون الاحترام في طرابلس** (ليبليك 1816ص 241، ميكاكي 1933ص . 628) وللتعليق على هذا فقد كانت توجد بطرابلس عند زيارة علي بك عدة قنصليات أوروبية منها الانجليزية وقنصلها وليام لانجفورد ، والفرنسية وقنصلها بوسييه ، والإسبانية وقنصلها دون جيرار دي توزا ، والبرتغالية وقنصلها مادونو ، والدانمركية وقنصلها نيسين ، والهولندية وقنصلها زوخيت وغيرها (يراجع عن مباني تلك القنصليات : شلابي 1994ب ، ص .ص 80 - 61) إضافة إلى القناصلة كان هناك بعض الاوروبيين يعملون معهم يذكر منهم ديلا بورت مستشار وترجمان القنصلية الفرنسية والذي كان صديقا لعلي بك وهو الذي زوده ببعض المعلومات عن مدينة لبدة وقدم له

نسخة من النقوش التي استنسخها ديلابورت من لبدة قبيل زيارة علي بك لطرابلس بقليل وقد كان بالمدينة بعض التجار المالطين تحت رعاية القنصلية الانجليزية ، وتجار بعض الدويلات الايطالية مثل البندقية ، ويبدو أن علي بك قد التقى بمعظم القناصلة وكانت تربطه علاقة وطيدة بالقنصلية الفرنسية والإسبانية ومن يعمل بهما على وجه الخصوص ، وقد اشار لوجود تاجر فرنسي كان اخا القنصل الفرنسي بوسييه ، وصانع سفن اسباني يبدو انه نفس الشخص الذي يذكر عنه الطبيب كودري انه قام ببناء سفينة ذات قلاعين للباشا نزلت إلى البحر في 15- 12- 1803(كودري 1982ص .40) والذي دمر منزله في الغارة الامريكية يوم 2- 9- 1804 (كودري 1982ص . 63) اضافة إلى طبيب من مالطا وصانع ساعات سويسري ، وفي هذا الصدد فقد كان هناك بعض الاطباء الاوروبيين يقيمون لفترات في طرابلس لممارسة مهنتهم وقد كان للباشا واسرته طبيب خاص بهم فتذكر الآنسة توللي وجود طبيب إيطالي من جنوة يقوم بهذه المهمة فر عام 1785هاربا من الطاعون (توللي رسالة بتاريخ 28-7- 1785ص . 196)ويذكر الأسير كودري وجود طبيب إسباني خلال 1803- 1805 (كودري 1982ص . 38) والطبيب المالطي المقصود هنا كان يدعى توماس ويتقاضى راتبا مرتفعا يبلغ حوالي الفي جنيه استرليني في السنة وفقا لما يذكره القنصل الانجليزي وارنجتون وأنه لم يكن موجودا في عام 1814وطلب الباشا من وارنجتون تأمين طبيب انجليزي بديل عنه (الخباط ، 1985ص . 89) ويبدو ان الاخير وفر ما طلبه يوسف باشا حيث يتحدث حسن الفقيه في يومياته عن طبيب الانجليز (حسن 1984اليومية رقم 1024و 1437 ص . 463، 565) وهو يقصد به الطبيب الايرلندي (جون ديكسون) الذي كان طبيبا خاصا ليوسف باشا واسرته وللقنصلية الانجليزية والذي توفي بطرابلس في 17-2- 1817، كما كان هناك طبيب آخر من نابلي اصبح فيما بعد - عام 1827- قنصلا لبلاده في طرابلس (حسن 1984 اليومية رقم 626ص . 350) اما صانع الساعات السويسري فيبدو انه كان له محل لتصليح الساعات وبيعها في طرابلس ، حيث كانت الساعات معروفة في تلك الفترة بطرابلس (حسن 1984 اليوميات أرقام 40، 77، 424ص . ص 187، 202، 299))ويفهم من احدى الوثائق ان يوسف باشا قد استلم ثلاث ساعات فضية هدية من ملك بريطانيا جورج الثالث في ابريل عام 1805 (الخباط1985 الوثيقة رقم 15ص . 262) ويبدو ان الساعاتي السويسري قد حل مكان الساعاتي المالطي المدعو إكزافييه نودي الذي كان يصلح الساعات قبل عام 1800بمدينة طرابلس ثم اصبح مستشارا للقنصلية الفرنسية ولعب دورا مهما في توقيع يوسف باشا اتفاقية مع نابليون بونابرت (الوافي 1998ص .ص 362 - 361)) اما عن انطباع علي بك عن المكانة التي يحظى بها الاوروبيون والاحترام الذي يلقونه من قبل اهل طرابلس فهو نفس انطباع بعض الرحالة الاجانب قبلئذ مثل الفيسي ميلانوفتش عام 1765 (كابوفين 1988ص . 304) والانسة توللي ما بين 1783- 1793(توللي ، ص . ص 112، 195، 216، 594)وقد سكن هؤلاء الاجانب بجانب القنصليات الأجنبية التي تجمعت في محلة باب البحر .

ويذكر علي بك **ان الاوروبيين والمسيحيين بوجه عام كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في كنيسة صغيرة يقوم على خدمتها اربعة رهبان من الدرجة الكهنوتية الثالثة في روما ، هؤلاء الرهبان يملكون ناقوسًا بكنيستهم يسمع صوته يوميا في كل احياء المدينة ، ويتم ترميم الكنيسة من خلال الايرادات العرضية والهبات الحرة والدخل أو المعاش الذي يصرف لها من روما** (ليبليك 1816ص . 241، ميكاكي 1933ص . 628)) والغريب ان علي بك يتحدث عن كنيسة واحدة بالمدينة على الرغم من ان الفيسي ميلانوفيتش يذكر وجود كنيستين واحدة كاثوليكية والاخرى ارثوذكسية وذلك في عام 1765) كابوفين 1988ص . 299) وتقع الكنيستان في ساحة السيدة مريم (ساحة خيري كريمة حاليا) التي عرفت محليا باسم وسعاية النصارى بمحلة باب البحر ، وقد بنيت الكنيسة الاخيرة في 1765خلف حمام القديس ميكال (سجن الاسرى المسيحيين الذي بني على انقاض سراي طورغود)

ويبدو ان هذه الكنيسة قد اقفلت بسبب طاعون 1785ف ولم تفتح إلا بعد زيارة علي بك للمدينة ، كما ان الكنيسة الكاثوليكية التي تحدث عنها علي بك يبدو أنها قد بنيت مكان الكنيسة الموجودة حاليا في نهاية شارع القنصلية الانجليزية أي ما يطلق عليها كاتدرائية السيدة مريم ، وهذه الكنيسة هي كنيسة البعثة الفرنسيسكانية التي وضع حجر الاساس لبنائها في 14-9- 1703ف واقيمت أول صلاة بها في نهاية العام نفسه (برنيا 1985ص . 211)) كما يفهم من يوميات حسن الفقيه ان هناك كنيسة كبيرة للنصارى قد اكتمل بناؤها في 1828ف (حسن 1984اليومية رقم 883ص . 425) يبدو أن المقصود كاتدرائية السيدة مريم التي بنيت على انقاض الكنيسة الصغيرة التي أشار اليها علي بك ، كما اجريت عليها اصلاحات وزيد في حجمها اثناء زيارة الرحالة كوبر لطرابلس عام 1895) كاوبر ب ت ص . 39) .

وقد اعجب علي بك بالمجتمع الطرابلسي الذي يذكر انه يتميز بالبساطة واكثر حرية وانطلاقا من المغرب ومن مظاهر تلك الحرية ان القناصلة الأوروبيين كانوا يزورونه دون ان يلتفت اليهم أو يهتم بهم احد ، كما أن الاوروبيين المقيمين بالمدينة الذين اعتنقوا الإسلام يمكن ان يتقلدوا اعلى المناصب الوظيفية في الدولة ويضرب مثلا على ذلك ريس البحرية الطرابلسية الذي كان انجليزيا مسيحيا دخل الاسلام ثم تزوج من احدى قريبات الباشا ، كما كان الاسرى المسيحيون يعاملون معاملة حسنة حيث يسمح لهم بخدمة أي شخص على ان يقدموا جزءا مما يكسبونه إلى الحكومة أو الدولة (ليبليك 1816ص . 234، ميكاكي 1933- 621) إن انطباع علي بك على مجتمع المدينة لايكاد يختلف عن انطباع الآنسة توللي التي تذكر أن اهل البلاد يعيشون في بحبوحة من الحرية وهي تقارن أيضا حالة طرابلس مع المغرب التي لم تكن خاضعة للهيمنة التركية (توللي ص . 116) ، أما عن الاسرى المسيحيين فقد كانت طريقة جلبهم إلى طرابلس من خلال ما يعرف بحركة النشاط البحري (القرصنة) على السفن التي كانت منتشرة في حوض البحر المتوسط وتمارسها الدول الاوروبية والاسلامية على حد سواء مع اختلاف الهدف من ورائها بين الطرفين (تراجع مناقشة هذا الموضوع : ابوعجيلة 1997 ص . 140- 143، الطويل 1997 ص 16- 18) . وقد كانت طرابلس نشطة في هذا المجال مرهوبة الجانب وقد كان الأسرى يباعون في أسواق الرقيق أو يفتدون من قبل بلدانهم ومنهم من يسجن في السجون التي عرفت في طرابلس باسم الحمامات والكثير منهم كان يعتنق الاسلام ويعيش في طرابلس حياة الاحرار بل استطاع بعضهم ان يصل إلى اعلى المراتب الوظيفية ، ولقد فصلت الآنسة توللي كيف يعامل اولئك الأسرى وذكرت مثلما ذكر علي بك ان الدولة أو الباشا كان يتقاضى النصيب الأكبر مما يحصل عليه الأسرى من عملهم (توللي ص . 172- 174، ويراجع عنهم ايضا برنيا 1985ص . 183وما بعدها) .

وقد **ادى تزايد عدد المسيحيين في طرابلس واستقرارهم بها وانفتاح طرابلس على اوروبة ان انتشرت اللغات الاوروبية ومفرداتها بين سكان المدينة ، إذإنَّ علي بك يذكر ان غالبية السكان كان يعرف ويتحدث بعدة لغات اوروبية ، ويتكلم الباشا نفسه الايطالية** (ليبليك 1816ص . 234، ميكاكي 1933ص 621) . وفي اللهجة المحلية في طرابلس مئات الكلمات الدخيلة على اللغة العربية من اللغات الايطالية والاسبانية وغيرها ويدل على ذلك الوثائق التي ترجع إلى تلك الفترة ومنها يوميات حسن الفقيه المليئة بتلك الكلمات (حسن . 1984في معجم اليوميات ص . ص 725-767) اما اللغة الايطالية فقد كانت اللغة الاكثر انتشارا بين سكان المدينة بسبب العلاقات التجارية القائمة بين المدن الايطالية وطرابلس كما ان بعض اليهود القاطنين بالمدينة كانوا يتكلمون الايطالية لكون اصولهم ايطالية وتربطهم علاقات وثيقة بالايطاليين ، ويذكر الرحالة ليون في هذا الشأن ان سكان طرابلس في عام 1819كانوا يتحدثون لغة ايطالية رديئة مما ساعد المسيحيين على تولي الكثير من الاعمال (لايون 1993ص . 22، و ص . ص13- 14من الاصل

الانجليزي) ، وقد كان يوسف باشا يتكلم الايطالية بطلاقة ويذكر علي بك وجود حوالي اربعين مسيحيا ايطاليا يقومون على خدمة قصر الباشا (القلعة) (ليبليك 1816ص . 235، ميكاكي 1933ص . 623) ومن ثم فهو يستطيع التحدث معهم ومخاطبتهم ما دام يجيد الايطالية .

وقد اشار علي بك إلى الموسيقا في طرابلس آنذاك وذلك اثناء زيارة قام بها ليوسف باشا في القلعة وافقت يوم عيد الفصح عند المسيحيين ويصف تلك الزيارة بأن **الموسيقا كانت تعزف عندما وصلت ولكن حينما لاحظني الباشا امر بايقاف العزف باشارة من يده .. وينظر المسلمون الوقورون لهذه المتعة بازدراء ، وعلى الرغم من إنني استمعت لها لفترة قليلة إلا انها تعد مقبولة وافضل من تلك التي تعزف في المغرب ، وتناهى إلى سمعي ان عدد أعضاء تلك الفرقة اربعة وعشرون عازفا** (ليبليك 1816 ص . 235- 236، ميكاكي 1933ص . 623) وهنا الصورة التي حاول ان يرسمها علي بك غير واضحة تماما هل الموسيقا التي كانت تعزف هي من الطرب والمتُعة بالموسيقا واللهو الذي كان يقام في حضرة الباشا من حين إلى آخر أم ان تلك الموسيقا هي التي كانت تعزف في كل يوم بعد صلاة العصر ويعد عزفها بمثابة النشيد أو السلام الملكي للأسرة القرمانللية مثلما سمعته وشاهدته الآنسة توللي عند زيارتها للقصر عشية 1-11- 1783ف (توللي ص . 94)) أم أن تلك الموسيقا لهو وطرب في القصر ، وبهذه المناسبة فإن الطبيب الأسير كودري يذكر أنه حضر في القصر حفلتي طرب يوم 18-8- 1804ويوم 21-5- 1805قوامها فرقة موسيقية تطرب البك (ولي العهد) مع رفقة من اتباعه (كودري 1982ص ص . 59، 79) كما تذكر السيدة بيرغل زوجة القنصل الهولندي عند قدومها إلى طرابلس عام 1814أنها صادفت في الميناء فرقة موسيقية من المالطيين كانت تعزف بآلات قديمة كانت مهمتها استقبال ضيوف المدينة بالاناشيد (ديردين 1976ص 227) والحقيقة ان الطرب كان معروفا في طرابلس وقتئذ خاصة في مناسبات الاعراس وحفلات الختان ويروي حسن الفقيه حسن في يومياته الكثير من الوقائع التي تؤيد ذلك (حسن 1984ص ص236 ،336، 418،385،341 ، 640،477) .

كما انه جرت العادة ان تعزف الموسيقا في المناسبات الخاصة بالاسرة الحاكمة وبالدولة تعزفها فرقة معينة تتبع القصر ، وقد اطلق عليها حسن الفقيه حسن اسم نوبة الحصار أي موسيقا أو فرقة القصر (القلعة) (حسن 1984ص 385،366،302، 477) وإذا كان علي بك يحدد عدد الفرقة بأربعة وعشرين عازفا إلا أنه لم يذكر شيئا عن آلاتهم الموسيقيةالتي من المؤكد أنها كانت لا تعدو بعض الآلات الوترية مع آلات ايقاعية متنوعة (يراجع عن الآلات الموسيقية الليبية التراثية : بن موسى 1988ص . 367- 368 السباعي 1990ص 22- 34) وهذه الموسيقا التي أطربت علي بك وكانت أفضل من مثيلاتها في المغرب يبدو أنها نتجت بسبب امتزاج المؤثرات الافريقية والتركية مع الموسيقا المحلية (يراجع في ذلك السباعي 1990ص . 23- 27) وقد يؤيد ذلك أن الفرقة الموسيقية التي تحدث عنها كودري كانت مؤلفة من أتراك وعرب وزنوج ومسيحيين ، ويبدو ان هذا الطرب لم يكن مقبولا من قبل المتدينين المسلمين في طرابلس وفقاً لشهادة علي بك لأنه كان يصاحب بالرقص والمجون أحيانا ، وكانوا يفضلون المدائح والإنشاد الديني بديلا عن الموسيقا .

4 -وصف معالم المدينة :

أ. الشوارع

أما عن انطباعات علي بك عن مدينة طرابلس فأول انطباع له انها **مدينة أجمل بكثير من أي مدينة بمملكة المغرب ، وانها تقع على شاطئ البحر وشوارعها مستقيمة وعرضها مناسب** (ليبليك 1816ص 233، ميكاكي 1933ص 624) وهنا من الطبيعي ان يقارن هذا الرحالة مدينة طرابلس بمدن المغرب لانه شاهد تلك المدن من كثب بعد أن عاش فيها فترة طويلة قبل زيارته لطرابلس ، اما عن وصفه لشوارعها بالاستقامة والعرض المناسب فهي كذلك من الناحية التخطيطية لكن هذا الوصف لا ينطبق على جميع الشوارع بل على

الشوارع الرئيسية فقط التي تتفرع منها ازقة ضيقة تطل عليها منازل المدينة ، وقد لاحظت الآنسة توللي 1783- (1793 أن **شوارع طرابلس ضيقة لكنها ضعف عرض شوارع الجزائر وتونس** ويبدو هذا هو السبب الذي جعل علي بك يصف تلك الشوارع بأنها عريضة لانها بدت له كذلك مقارنة بما شاهده في مدن المغرب ، وهذه الأزقة هي المقصودة في وصف الطبيب الاسير جوناثان كودري ما بين 1803 - 1805بأنها كانت ضيقة ومتسخة (كودري 1982ص 78) ومن قبله الاسير الجراح البروفنسالي جيرار ما بين 1668- 1676 (التليسي 1985ص 93) والصفة الاخيرة هي التي لاحظها الأخوان بيتشي عند عبورهما الشوارع المؤدية الى القلعة لمقابلة الباشا في أثناء زيارتهما لطرابلس في 1821ف ، وهو نفس انطباع السيدة بيرغل التي مشت في شوارع طرابلس لأول مرة عام 1814كما ذكرت أن شوارع طرابلس غير مبلطة (دريدين 1976ص 227) وقد لاحظ الرسام الالماني وليايم هاين ان عرض تلك الشوارع من 6-8اقدام ويصل البعض منها الى 15- 20قدما وطولها من 20 الى 30قدما وذلك خلال زيارته لطرابلس عام 1859ف (الشركسي ، 1986ص 37) ويذكر وصف علي بك لشوارع طرابلس بوصف التيجاني (1114- 1116 ف) لتلك الشوارع بالنظافة والاتساع والاستقامة (التيجاني 1981ص 238) وكذا وصف العياشي (1662) لتلك الشوارع ، وعلى خلاف ما ذكره الفيسي ميلانوفيتش في عام 1765بأنها لم تكن مستقيمة (كابوفين ، 1988الوثيقة رقم 25ص 299) ومما يجدر ذكره **ان شوارع الاحياء العربية (الليبية) كانت تتميز بالنظافة إذا ما قورنت بشوارع الاحياء التي كان يسكنها اليهود** وهذا شاهده كاوبر عام 1895 كاوبر ب ت ، ص ص25، 36، و يراجع عن تلك الشوارع وتخطيطها : عمورة 1993ص 164- 166/ ص 333.

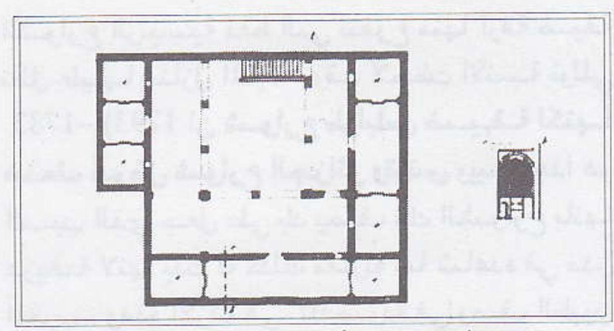
ب- المنازل :

ويصف منازل طرابلس بانها **منازل منتظمة بنيت بطريقة جيدة واغلبها ذوات بياض ناصع ، ويقترب طرازها المعماري من الطراز الاوروبي مقارنة بالطراز العربي** ، وهي ذات مداخل من الطراز التوسكاني بصورة عامة ، وكانت الاعمدة الحجرية واقواس أفنيتها مستديرة الشكل مقارنة بمثيلاتها في المغرب التي تكون مسننة او مذببة ، ومن الشائع رؤية استخدام الحجر وايضا الرخام في تشييد الافنية والمداخل والدرج والمساجد . وتوجد بتلك المنازل نوافذ تطل على الشوارع - خلافا لما هو الحال في المغرب - لكنها تكون دائما بشبابيك (مصاريع) مغلقة جيدا وهناك مظهر غريب في منازل طرابلس وهو ان اغلب حجراتها تكون طويلة جدا وضيقة - ويوجد في كل نهايةمن نهايتي الحجرة دكة من الواح خشبية يصل ارتفاعها اربعة اقدام ولها درج ضيق وتجهيز تلك الخلوات بقضبان وزخارف خشبية ، ويوجد مدخل اسفل كل منها ، وقد وجدت أنها عملت هكذا لتحتوي جميع الاثاث المعتاد لسيدة ، مثلا يوضع سرير أعلى إحدى الخلوات ، وتوضع الملابس أعلى الأخرى ، وهناك خلوة أخرى للاطفال ، ويوجد أسفل إحداها منضدة للاواني والطعام او المؤن ، واسفل خلوة اخرى الملابس المستعملة والكتان .. وغيره وبسبب هذا التنظيم فان الحجرة الموجودة في المنتصف لا يوجدبها أي من المعوقات وتستخدم لاستقبال الضيوف .. ويمكن ان يملك الانسان في منزله ثلاث او اربع لحجرات لثلاث او اربع نساء مع كل وسائل الراحة المحتملة وبدون ان تكون كل حجرة في طريق الحجرة الاخرى (ليبليك 1816ص ص 233-234، ميكاكي ص ص620 - 621).

ان هذا المنزل الذي وصفه علي بك وقام بعمل مسقط افقي له ما هو الا المسكن الذي استأجره في طرابلس وقد ذكر انه كان كبيرا ومقابلا لمنزل الوزير الاول (محمد دغيس) ومنزل القنصل الاسباني (ليبليك 1816ص 232، ميكاكي 1933ص 218) وهذه اشارة مهمة قد تساعد في تحديد موقع ذلك المنزل فمنزل القنصل الاسباني (دي سوزا) جزء من القنصلية الاسبانية التي تقع في شارع او زنقة الاسبانيول

(الاسبان) المتفرع من ساحة السيدة مريم والمجاور لشارع جامع محمود ، وقد شغلت القنصلية الاسبانية الجزء الغربي من السجن التركي القديم أو حمام القديس ميكال المطل على زنقة الاسبانيول (فيرو 1994 ص 165هامش 1، شلابي 1994ب ، ص ص68-70) وهناك اشارة اخرى مهمة وردت في يوميات حسن الفقيه حسن - المعاصر لتلك الفترة - بخصوص منزل القنصل الاسباني قد تساعد في معرفة صاحب المنزل الذي استأجر منه علي بك فيفهم من اليومية رقم 246 - ان المنزل المواجه لمنزل ذلك القنصل كان ملكا للاولاد سحبان اشتراه منهم مصطفى الاحمر (صهر الباشا وحاكم فزان) في 18صفر 1233هـ (يوافق 29-12-1817) وقد يكون ملكا لسحبان عند زيارة علي بك لطرابلس في 1220هـ (توافق بداية هذا العام أول إبريل 1805) ثم ورثه اولاده عنه لهذا اطلق عليه حسن الفقيه حوش اولاد سحبان (حسن 1984اليومية رقم 246ص 254)هذا على سبيل الترجيح والافتراض من الادلة المتوفرة ، وقد يكون الامر خلافا لذلك ، ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان المنزل المشار اليه قد ازيل تماما مما يصعب معه عملية التحقق من انه المنزل الذي سكنه علي بك ام لا .

ويمكن ان يتم ايراد العديد من الملاحظات حول وصف علي بك للمنازل الطرابلسية تلك التي انفردت بطراز خاص بها يختلف عن طراز بقية المنازل الشرقية لكنها تتفق معها في بعض العناصر ، والوصف الذي تركه علي بك معزز بمسقط افقي للمنزل الذي استأجره يقدم معلومات جيدة عن طراز تلك المنازل وفي الوقت نفسه فان وصفه لا يعد جديدا فقد سبق أن وصفت المنازل الطرابلسية عند بعض الرحالة والمقيمين بالمدينة امثال الاسير الجراح البروفنسالي جيرار في عام 1675(التليسي 1985ص 93) والفيسي ميلانوفيتش في عام) 1765كابوفين ، 1988الوثيقة رقم 25ص 299، بازامه ، الملحق العاشر ص 211، التليسي ، 1985ص 119 - 118والقنصل اغسطينو بيلاتو في 1777 كابوفين 1988الوثيقة رقم 26ص 305)ويعد



مخطط افقي للمنزل الذي سكنه علي بك في طرابلس

وصفهم للمنازل بسيطا مقارنة بوصف علي بك الذي يعد وصفه مكملا للوصف الذي تركته الآنسة توللي لمنازل طرابلس في رسالتها المؤرخة بـ 9-11- 1783ف (توللي ص 87-88) أي قبل اثنين وعشرين عاما من وصف علي بك ، فقد اهتمت الآنسة توللي ببعض الجوانب التي اهملها علي بك حيث انطلقت في وصفها من مدخل المنزل وانطلاقا الى الداخل بينما اهتم هذا الرحالة - بوصف المنزل من الداخل منطلقا من الفناء ومركزا على وصف الحجرات فقط وقد ترك العديد من الاشياء التي لم يصفها الى المخطط الدقيق الذي رسمه والذي بدوره يعد كافيا لاعطاء فكرة مكتملة عن ذلك المنزل مع انه يظل هناك قصور في كونه وصف المنزل الذي سكنه فقط وهذا الوصف لا ينطبق على جميع المنازل الطرابلسية لكنه بعد انموذجا لها (يراجع عن وصف المنازل الطرابلسية بشكل عام :بلدية طرابلس ، ص 86، عمورة 1993ص 345- 353الاشكال 50-53 ، مجلة كلية الهندسة 1972ص 191- 223) ويمكن القول إن الآنسة توللي قد كست العظام لحما بوصفها بعض النواحي الاجتماعية التي تجرى في بعض اجزاء المنزل ، هذا الجانب الذي لم يهتم به علي بك كثيرا لأنه لم يمكث فترة طويلة بالمدينة ولم يزر العديد من المنازل ولم يشارك في كثير من المناسبات الاجتماعية - مثلما فعلت الآنسة توللي - فهو في هذا الشأن يقول **اني لم اغادر منزلي الا للذهاب إلى المسجد أو القيام ببعض الزيارات الرسمية أو للتنزه ماشيا(ليبليك 1816ص 232) .**

وأول ما يذكره عند وصفه للمنازل انها منازل منتظمة والحقيقة - انها كذلك من حيث الهيكل المعماري

العام الذي يعد ثابتا وكان تقسيم رومانللي للمنازل الطرابلسية الى ثلاث مجموعات بناء على اختلاف الانماط الزخرفية المطبقة فيها لا على الاختلافات المعمارية البسيطة التي قد توجد بين المنازل بسبب الحالة الاقتصادية ومكانة صاحب المنزل ومكانته الاجتماعية فجوهر الهيكل المعماري واحد على الرغم من الاختلافات التي تطرأ بسبب العوامل الآنفة الذكر (يراجع عن المنازل الطرابلسية رومانللي ص 10- 16) كما **انه محق في وصفه تلك المنازل بالبياض الناصع لانتشار طلاء منازل مدينة طرابلس ومبانيها بالطلاء الأبيض (الجير) من الخارج وبسبب هذا فقد وصفت مدينة طرابلس بالمدينة البيضاء** وهذا ما شاهده الطبيب الاسير المدعو جيرار عام 1675) التليسي ، 1985ص 93) إضافة إلى السيدة بيرغل زوجة القنصل الهولندي عام 1814، ويؤدي انعكاس اشعة الشمس عليها الى توهج اللون الابيض واشعاعه وهذا المشهد كثيرا ما يشاهده الزائر القادم للمدينة اليها من البحر وهذا انطباع الآنسة توللي عن المدينة قبل الوصول اليها من البحر (توللي : رسالة بتاريخ 3-7- 1783ف ، ص 52) **وكان الطلاء الابيض لمباني المدينة عاملا مساعدا على انعكاس الحرارة والاشعة وتقليل انتقالها الى الوحدات السكنية** (عمورة 1993ص (347).

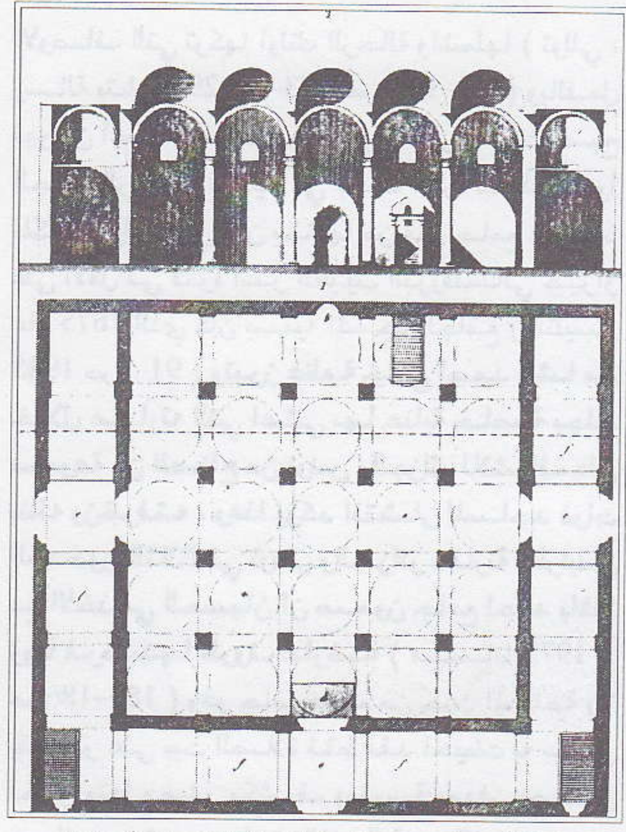
ومن خلال المخطط الافقي الذي تركه علي بك وبعض مما قدمه من وصف لبعض عناصرها يمكن ان توصف تلك المنازل على النحو الاتي : انها ذوات طابقين بدليل وجود درج في فناء المنزل ، وتفتح على الشارع بنوافذ تطل على الشوارع يبدو انها كانت لا تستخدم الا عند الضرورة وتظل مغلقة طيلة الوقت ولا يحتاج لها في الاضاءة والتهوية الا بقدر بسيط ذلك ان الفناء الذي يتوسط المنزل وتطل عليه حجراته هو الذي يقوم بهذه المهمة على أحسن وجه ، وهو يعد أهم قسم في المنزل أي مركزه يحيط بهذا الفناء المستطيل الشكل ظلة أو رواق من ثلاث جهات اما الجهة الرابعة فقد شغلها الدرج ، وتقوم تلك الأروقة على أعمدة حجرية تحمل أقواسا مستديرة تحمل بدورها سقف أروقة الطابق الأرضي وهو يعد في نفس الوقت أرضية لشرفات الطابق العلوي ، ويلاحظ أن عرض الأروقة متفاوت ولا يتسم بالانتظام كما أن عدد الاعمدة في كل جانب مختلف ، تطل ثلاث حجرات على الفناء بعد اجتياز الأروقة أي أن كل رواق تقع خلفه حجرة ، وقد لاحظ علي بك على تلك الحجرات انها ذات مظهر غريب فهي تتميز بالطول والضيق وعدم الاتساع وهذا واضح من خلال مخططه ، ولاتقل مساحتها عن 50مترا مربعا (عمورة 1993ص 348)وقد جرت العادة ان تقسم كل حجرة الى ثلاثة اقسام يعد القسم الأوسط اكبرها بينما يتساوى القسمان الآخران من حيث الحجم والمساحة أي ان الداخل للحجرة عبر مدخل يقع في المنتصف يواجه القسم الاكبر من الحجرة الذي يعد بمثابة حجرة او مكان استقبال الضيوف أو للمعيشة ، ويوجد في نهايتي هذا المكان جزء مفصول يعد بمثابة الخلوة التي تزود بمنصة خشبية ترتفع بحوالي 120سم عن مستوى أرضية الحجرة (يصل ارتفاعها أحيانا الى 2,40سم قارن مع توللي ص 302) ويمكن الوصول الى سطحها عبر درج ضيق وتزود من الاسفل بمدخل يؤدي الى التجويف الداخلي لهذه المنصة التي كانت تزخرف في العادة بزخارف خشبية وقضبان ، وتظهر واجهتها في اعلاها قوس نصف دائري كما رسمها علي بك وتوجد حواجز خشبية تبدأ من حاشية المنصة وتنتهي في الاعلى، وقد زودت كل خلوة بنافذة تطل على أروقة الباحة التي تزودها بالاضاءة والتهوية المناسبة ، ويذكر علي بك ان الجزء العلوي من هذه المنصة كان يستخدم سريرا بينما يستعمل تجويفها الداخلي مخزنا لاواني الطعام والمؤن والملابس وغيرها من الاشياء ذات الاستعمال المنزلي ، وفي العادة تستخدم احدى الخلوتين لنوم رب الاسرة وقرينته بينما تستخدم الخلوة الاخرى لنوم الاطفال ، **ويسمى هذا المكان محليا السدة ويعادل حجرة النوم** (توللي ، ص 285، 302) وقد لاحظ علي بك ان المنازل كانت تزود بثلاث او اربع حجرات تخصص كل حجرة لزوجة من الزوجات بحيث تكون كل واحدة مستقلة بحياتها عن الأخرى ، ومن

خلال المخطط يتضح أن هناك ثلاث حجرات كل واحدة منفصلة عن الاخرى ، يشكل الفناء نقطة الانفصال والاتصال بينها في آن واحد (يراجع عن التخطيط المعماري لهذا الطراز من المنازل : مجلة كلية الهندسة 1972ص . 198 وما بعدها) وتفسير علي بك وجود عدة حجرات في المنزل الطرابلسي يرتبط ارتباطا مباشراً بظاهرة تعدد الزوجات وهذا غير صحيح في جميع الأحوال لأن المنازل الطرابلسية لم تبن هكذا لذاك الغرض مع أنها تعد مفيدة وناجحة في ذلك الشأن لكن المنازل بنيت في الأصل لتأوي عائلة تتكون من عدة أسر ترتبط فيما بينها بصلة الدم والقرابة (الأبناء وزوجاتهم مثلاً) لكل أسرة حجرة - تعد بمثابة الشقة -بها قسم للمعيشة في المنتصف وقسمان للمنامة على الجانبين بينما تشترك جميع الأسر في الفناء والحمام والمطبخ التي تعد منافع عامة تشترك فيها العائلة لممارسة نشاطها الاجتماعي والاقتصادي (يراجع عن فلسفة المنزل الطرابلسي : اللافي ، 1997 ص . 78-87) وهذا يتنافى مع قول علي بك إن المنازل الطرابلسية تقترب من الطراز الأوروبي مقارنة بالطراز العربي وهذا يحتاج إلى مناقشة مستفيضة فعمارة المدينة القديمة في طرابلس بصورة عامة ترجع أصولها إلى العمارة الإسلامية (يراجع : هاشم 1999 ص ص . 56-63) إضافة إلي مؤثرات محلية تميز بعض مبانيها عن عمارة المدن الإسلامية الأخرى ، وإن وجود الأفنية في المنازل يؤكد الأصول الشرقية (العربية) للمنازل الطرابلسية ، وفي هذا الصدد يجب الإشارة إلى أن طرابلس كانت من المدن المفتوحة على أوروبه وأنه كان يوجد بها أعداد كبيرة ومختلفة من الأوروبيين الذين وصلوا إليها رقيقا وعاشوا بها بعد أن اعتنقوا الإسلام وكان من بينهم عمال مهرة برزوا في أعمال البناء - و إضافة إلى جلب بعض العمال من مالطا لبناء بعض الأبنية المهمة في المدينة وتزيينها (حسن ، 1984 اليومية رقم 977 .ص 452-453) وربما أكسب هؤلاء بعض المباني طابعاً اوروبيا جعل علي بك يذكر بأن المنازل تقترب من الطراز الأوروبي ، وبصورة عامة فإن الفن الإسلامي في ليبيا بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر قد تأثر بالأسلوب الفني في عصر الباروك والركوكو في أوروبة وقد وصل هذا التأثير عن طريق الفن التركي العثماني (البلوش 1982 ص . 45) وعن طريق الأوروبيين الذين عملوا في طرابلس ، وهو محق إلي حد بعيد في قوله أن المداخل من الطراز التوسكاني فمداخل العمائر الطرابلسية سواء الدينية منها أو المدنية التي تميزت بزخارفها المعمارية البارزة على عقود تلك المداخل ترجع في أصولها إلى منطقة غرب البحر المتوسط التي عرفت هذا النوع من المداخل حيث انتشرت زخرفة المداخل في إيطاليا وفرنسة واسبانيا ومالطا (البلوش 1982 ص . 21 البلوش 1989ص . 22) وربما عرفت ليبيا هذا التقليد المعماري عن طريق مباشر من ايطاليا ومالطا ، أو ربما عن طريق تونس التي عرفت هذا النوع من المداخل عن طريق اوروبة ، وعموماً فإن الملاحظات التي اوردها علي بك حول تأصيل بعض العناصر المعمارية تعد رائدة فلم يوردها أحد من الرحالة السابقين له أو الذين زاروا المدينة بعده .

<u>ج.المساجد :</u>

أما المساجد فيذكر انه **كان يوجد بالمدينة ستة مساجد من (الدرجة الأولى) وهي ذوات مآذن ، وستة مساجد اصغر منها** (ليبليك 1816 ص . 236 ، ميكاكي 1933 ص . 624) ويبدو أن علي بك **يقصد بالمساجد من الدرجة الأولى أنها تلك المساجد الفخمة والضخمة التي تتميز بمآذنها المرتفعة التي قد تلوح للقادم للمدينة من البحر** وكانت قائمة عند زيارة علي بك للمدينة ويمكن أن يطلق عليها اصطلاح المساجد الجامعة أو الجوامع ، وربما تكون المساجد الجامعة المقصودة هي : جامع الخروبة ، جامع طورغود ، جامع سيدي سالم المشاط ، جامع محمود ، جامع أحمد باشا ، جامع شائب العين (يراجع عن تلك المساجد : ميسانا ، 1972 ص ص . 153-194 ، بلدية طرابلس ، ص . 66 - 81 ، شقلوف و(وآخرون) 1980 ص 44 وما بعدها) ويصف تلك الجوامع بأنها لها مآذن وبالفعل فان الجوامع المذكورة ذوات **مآذن أغلبها اسطوانية الشكل ، وهذا يذكر بوصفه لمآذن طرابلس أنها -** آذن

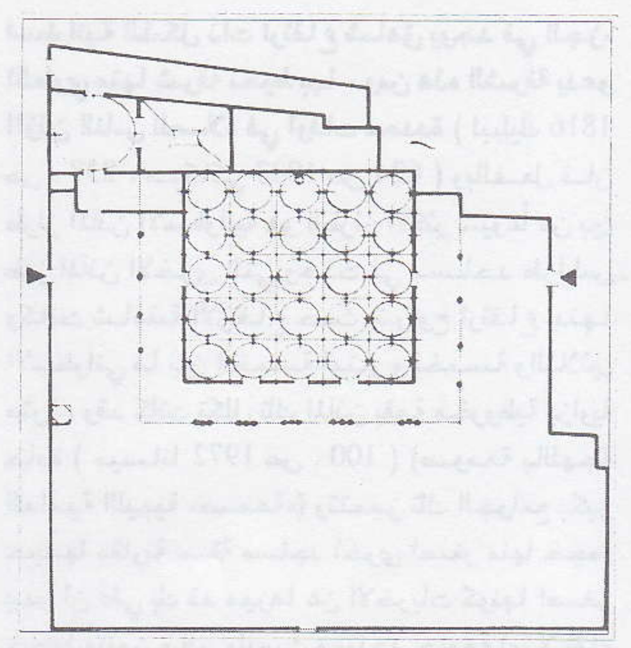
اسطوانية الشكل ذات ارتفاع شاهق يوجد في الجزء العلوي منها شرفة تحيط بها ، ومن هذه الشرفة يدعو المؤذن الناس للصلاة في أوقات محددة (ليبليك 1816 ص . 237 ، ميكاكي 1933 ص 624) وبالفعل فان طراز المآذن الاسطوانية هو الطراز الأكثر شيوعاً من بين طرز المآذن الأخرى التي وجدت في مساجد طرابلس وكانت شاهقة الارتفاع حيث يتراوح ارتفاع بدنها الاسطواني ما بين الخمسة أمتار والخمسة والثلاثين مترا ، وقد كانت تكلل تلك المآذن بقمة مخروطية بزاوية حادة (ميسانا 1972 ص . 100) (صومعة باللهجة العامية الليبية «صمعة») وتتميز تلك الجوامع بكبر حجمها مقارنة بستة مساجد أخرى أصغر منها حجماً يبدو أن علي بك قد ميزها عن الاخريات كونها اصغر حجما وبدون مآذن وليست مساجد جامعة أي لا تقام فيها صلاة بل مساجد لصلاة الاوقات فقط (يراجع عن مساجد الاوقات عمورة ص . 367–375) وربما تكون هذه المساجد المقصودة من بينت المساجد الآتية : مسجد الصقلاني ، مسجد بن سليمان ، مسجد بن طابون ، مسجد بن صوان ، مسجد بن نور ، مسجد ابن الطيب ، مسجد الشيخ الحطاب ، مسجد الريفي (يراجع عنها : شقلوف وآخرون 1980 ، أماكن متفرقة) ، ومن هنا يبلغ عدد المساجد التي حصرها علي بك في طرابلس مابين **1805–1806** اثني عشر مسجداً، ولا يبدو أن هذا هو العدد الكلى لمساجد طرابلس أنذاك فالاسير البروفنسالي يحدد عددها في عام 1675 بما يقرب من العشرين مسجداً (التليسي ، 1985 . 92) ويبدو أن ما ذكره علي بك هو ما شاهده بالفعل من مساجد المدينة خلال حركته المحدودة بين شوارع المدينة وازقتها المؤدية إلى القلعة « السراي » أو مسجد أحمد باشا الذي كان كثير التردد عليه فلم يشاهد بعض المساجد التي كانت تبعد عن خط سيره فهو على سبيل المثال لم يذكر مسجد مولاي محمد الذي يقع بعيدا عن منطقة شاطىء البحر محور نشاط وسكن وحركة علي بك . ولم يهتم هذا الرحالة بالمساجد جميعها (يراجع عن مساجد طرابلس عمورة 1993 ص . 353 – 402)



مخطط افقي ورأسي رسمه علي بك لبيت الصلاة في جامع أحمد باشا

بل قصر اهتمامه على المسجد الرئيسي بالمدينة وهو مسجد أحمد باشا الذي أولاه جل عنايته من حيث الوصف والرسم فهو يصفه بقوله : مسجد طرابلس العظيم مسجد فخم وذو عمارة حسنة ، يتكون سقفه من قباب صغيرة مرفوعة على ستة عشر عموداً دورياً من الرخام الرمادي الرفيع التي استولي عليها من مركب مسيحي ، وقد قام ببناء هذا المسجد جد سيدي يوسف ، ويعد هذا المبنى كغيره من المباني من النوع نفسه ارفع منزلة من تلك الموجودة في المغرب فهي ذوات واجهات فخمة وشرفات مرتفعة للمنشدين . . وقد غطيت ارضيتها بالسجاد الشرقي . . (ليبليك 1816 ص . 236 – 237 ، ميكاكي ص . 624) ، والحقيقة أن علي بك ليس أول رحالة يهتم بهذا الجامع فمن قبله الفيسي ميلانوفيتش في عام 1764 ، والآنسة توللي في عام 1783 وأبو العباس أحمد الفاسي في 1796ف ، ويعد وصف الآنسة توللي لهذا الجامع من أفضل تلك

الأوصاف التي تركها أولئك الرحالة واشملها (توللي ، رسالة بتاريخ 29-12-1783ص 109-112) وبالفعل فهو من أعظم المساجد الجامعة بطرابلس حيث اصبح الجامع الرئيسي بالمدينة في العهد القره مانللي وتبوأ المكانة الأولى التي كان يحتلها من قبل جامع طورغود على الأقل في فترة أسر الطبيب البروفنسالي جيرار عام 1675 الذي كان يسميه المسجد الجامع (التليسي 1985 ص . 91) **وتبرز عظمة جامع أحمد باشا من خلال عمارته التي اعتنى بها عناية خاصة بجلب مجموعة من الصناع من تونس والجزائر للاشراف على بنائه وزخرفته ، وهذا يؤكد انتشار المساجد ذوات الصحون الثلاثة في تونس والجزائر مقارنة بطرابلس مع الأخذ في الحسبان أن صحون جامع أحمد باشا ربما فرضتها ظروف عارضة** (ميسانا 1972 . ص186-189) وهو جامع عظيم من حيث المساحة ولا يقتصر على بيت الصلاة فقط فقد احيطت به مرافق أخرى منها مصلى مكشوف ومدرسة ومدفن وصحون وحوانيت ، وتربو مساحته الإجمالية عن ألفي متر مربع (حوالي 5350 مترا) كما أن فخامة هذا الجامع لا تأتي من عمارته فحسب بل من زخرفته التي كانت مثار انتباه لجميع الرحالة الذين زاروه فقد اشادوا بها لاسيما بلاطات القيشاني على جدرانه الداخلية والخارجية (كابوفين 1988 ص . 299 توللي ، رسالة بتاريخ 3-7-1783 ص 61 خشيم ، 1974ص 145) وقد فتن علي بك بالزخرفة الموجودة داخل بيت الصلاة خاصة زخرفة الواجهة (جدار القبلة) التي وصفها بالفخامة وهي كذلك فبلاطات القيشاني مزدانة بزخارف نباتية متعددة يعلو البلاطات حشوات جصية مزخرفة بزخارف هندسية وكتابية (يراجع عن تلك الزخارف : البلوش 1982 ص ص. 36-40 ، البلوش 1989 ص ص . 46-54) ، ولعل أهم ما يلفت الانتباه في بيت الصلاة المتمثل في مجموعة من القباب الصغيرة (قبيبات) هذا الطراز من التسقيف كان شائعا في الكثير من المساجد في أنحاء متفرقة من ليبيا ولعله أكثر انتشارا في طرابلس مقارنة باية مدينة أخرى (ميسانا



المخطط الأفقي الحديث لجامع أحمد باشا (نقلا عن تاريخ عمارة المساجد الليبية 1984)

1972 ، ص ص 82-93) ، تحمل تلك القبيبات على أقواس ترتكز بدورها علي أعمدة بلغ عددها في هذا الجامع ستة عشر عمودا وليس تسعة عشر عمودا مثلما جاء خطأ في الموسوعة الإسلامية (شقلوف وآخرون 1980 ، ص 107) ، يصف علي بك تلك الأعمدة أنها رائعة ومن الرخام وهي من الطراز الدوري والحقيقة أنها كذلك لكن طرازها يمكن نسبته إلى الطراز التوسكاني الجديد أو الشبيه بالطراز الدوري ، ولم يهتم علي بك إلا ببيت الصلاة فقط - على خلاف الانسة توللي - فلم يتحدث عن ملحقات الجامع كالمدرسة والمدافن وغيرها ، ومن مظاهر اهتمامه ببيت الصلاة هو قيامه بعمل مسقط أفقي له بمقياس رسم 1:250 سم ، ورسم قطاعاً للواجهة الجنوبية الشرقية (جدار القبلة) ، وقد وفر هذا الرسم الكثير من الأوصاف التي كان يمكن أن يردها علي بك لبيت الصلاة ، ويمكن أن يتم وصفه من خلال ذلك المخطط ومقارنته بالواقع الحالي من خلال مخططاته الحديثة المنشورة : بيت الصلاة مربع الشكل تماما (20× 20 مترا) يمكن الدخول إليه من ثلاث جهات الشمالية الشرقية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية عن طريق مدخل يقع في منتصف كل جدار تماما ، يقع المدخل الرئيسي على محور واحد مع

المحراب ومواجهها له عبر بلاطة المحراب ، ويواجه المدخلان الجانبيان بعضهما البعض ، وتطل المداخل الثلاثة على ثلاثة من المداخل الرئيسية الاربعة للمجمع التي تؤدي إلى الأسواق التي يقع بينهما هذا المجمع الديني وهي سوق المشير ، وسوق الرباع ، وسوق الصاغة ويتكون بيت الصلاة من خمس بلاطات تكونت بفعل الأعمدة التي فصلتها عن بعضها البعض ، ويعلو المدخل الرئيسي عند الولوج منه سدة خشبية مرفوعة على أربعة أعمدة أشار إليها علي بك بالحرف F في مخططه وذكر أنها كانت تستخدم لجلوس المنشدين وهي يمكن الدخول إليها من الشرفة الشمالية الغربية ، وتنتهي بلاطة المحراب ، بمحراب له مسقط افقي على شكل نصف دائرة « الحرف B» يقع بجواره المنبر الرخامي « الحرف C » وعند النظر إلى المسقط الافقي لبيت الصلاة يلاحظ وجود رواق يحيط به من ثلاث جهات وهو على كل حال ليس الرواق الذي يحيط ببيت الصلاة كما يبدو للناظر لذلك المخطط إلا أن الذي يقصده علي بك هي الشرفات الداخلية التي تشرف على بيت الصلاة من ثلاث جهات (الحرف F) والتي تعلو الاروقة الخارجية ويعد سقف تلك الاروقة الارضية للشرفات ، أو كأنها تمثل الدور العلوي للأروقة ، وهذه الشرفات من العناصر المعمارية الدخيلة على عمارة المساجد الليبية فلم تظهر إلا في بعض المساجد مثل جامع شائب العين وجامع احمد باشا وجامع قرجي وذلك بتأثير من تونس والجزائر (ميسانا ص1973 . 181-182 ، البلوش ، 1984 ص . 194 - 195) ولعل مرد ذلك إلى الصناع الذين كانوا يجلبون من تونس (عمورة 1993 . ص 389-390) كما أن رسم القطاع الرأسي لجدار القبلة أكمل تصور بيت الصلاة الذي لم يظهر في المخطط الافقي حيث تبرز نوعية التسقيف المتمثلة في القبيبات النصف دائرية المحمولة على الأقواس والأعمدة ، كما يبرز مستوى الشرفات الداخلية بالنسبة لبيت الصلاة وطريقة تسقيفها المتميزة بالاستواء ، ويظهر من خلال هذا القطاع المحراب والمنبر ، ويبدو الأخير لا يختلف عن المنبر الرخامي الموجود حتى الآن بالجامع بينما المحراب يبدو أنه مختلف فقد ظهر في الرسم بسيطاً يشبه مدخل ذي عقد نصف دائري لا تظهر به أي زخارف باستثناء دوائر صغيرة على جانبي المحراب ، والواقع الحالي للمحراب أنه يملك عقدا على شكل حدوة الفرس محمول على عمودين جانبيين وتكثر بلاطات القيشاني والزخارف الكتابية ، ولكن هل يعد هذا خطأ في رسم علي بك أو أن هذا المحراب كان كذلك في عام 1805 ف ثم ادخلت عليه اضافات جديدة في عصر لاحق فظهر بهذا الشكل ، وهذا ما يرجح في ظل الدقة التي اشتهر بها علي بك في رسوماته ، كما يستنتج من وصف الآنسة توللي لذلك المحراب انه كان بسيطاً فهو عندها فجوة في الجدار تحت قوس صغير (توللي ، ص 110) ويذكر هذا بمحراب جامع أحمد باشا الذي رسمه علي بك وليس بالمحراب الموجود الآن في الجامع وهذا رأي يحتاج إلى بحث وتقصٍ من قبل المتخصصين في هذا المجال ، وعلى أية حال فإن الرسم الذي أعده علي بك لهذا الجامع يعد وثيقة مهمة جدا وعملا رائدا في مجال الآثار الليبية فأول مرة يعمل مسقط افقي ورأسي لمعلم من المعالم الأثرية الليبية في فترة مبكرة من القرن التاسع عشر ، وعلى الرغم من الدقة التي تحراها علي بك في رسمه لبيت الصلاة إلا أن هناك بعض الأخطاء وجب تصحيحها لعل أهمها أن الشرفات الداخلية رسمت في مخططها الافقي على مستوى بيت الصلاة حتى ظهرت كأنها تمثل الاروقة التي تحيط ببيت الصلاة وفي نفس مستواه ، كما أن المنبر يظهر في منتصف الفراغ الأول الموجود علي يمين المحراب بينما في الواقع الحالي يقع على الجانب الايسر لذلك الفراغ وليس في منتصفه ، إضافة إلى ذلك أن السدة تمتد عند علي بك إلى منتصف الفراغ الموجود أعلى المدخل الرئيسي بينما الواقع الحالي لتلك السدة أنها تمتد على كامل الفراغ المذكور ، وربما لا تعد الملاحظة الأخيرة خطأ من علي بك بل هو يصور السدة القديمة التي كانت في الجامع آنذاك ، وهذا الموضوع يحتاج إلى بحث وتقص ينصب على التطورات التي حدثت على بيت الصلاة

استرشادا برسم علي بك ومقارنته مع الواقع الحالي لبيت الصلاة ، وفي هذا السياق يضيف مخطط علي بك اضافة جديدة وهي انه كان لبيت الصلاة مدخل واحد في جداره الشمالي الغربي وليس ثلاثة أبواب كما يظهر الآن في ذلك الجدار ، وهذا يؤكد أنه حدثت إضافات على بيت الصلاة لم يكشف عنها بعد ربما تكون معاصرة للإضافات التي حدثت على الرواق الشمالي الغربي (يراجع عنها : ميسانا 1973 ص 191-192) ويضيف علي بك أن جد يوسف باشا هو الذي قام ببنائه والمقصود هنا أحمد باشا القره مانللي مؤسس هذه الأسرة وقد قام بانشاء هذا الجامع والانفاق عليه ببذخ في 1738ف أي أن علي بك قام بزيارته والتردد عليه للصلاة بعد سبعة وستين عاماً من بنائه (يراجع عن هذا الجامع : (ميسانا 1973 ص ص 194 بلدية طرابلس ص . 76-81 الورفلي 1976 ص 11-14 شقلوف وأخرون 1980 ص ص 98-107 ، البلوش 1984 ص ص 183-205 ، حامد 1991 ، ص 64-65 ، عمورة 1993 ص 384-385) .

ويبدو أن علي بك قد حضر عدة صلوات للجمعة في ذلك المسجد فهو يصف بدقة صلاة الجمعة والشعائر التي تجرى بها من تلاوة المرتلين الجالسين في السدة لآيات من القرآن الكريم والخطبة والدعاء للباشا وإقامة الصلاة ، وهو يذكر أن الأطفال كانوا يستخدمون لمناداة الناس للصلاة عند إقامتها من شرفة المئذنة (ليبليك 1816ص . 237-238 ، ميكاكي 1933 ص 624) ويصف شرفات المآذن أنها تضاء في كل ليلة من ليالي رمضان ، وكانت تلك المساجد تدعم بأموال الوقف أو الحُبُس (الحُبُس عند حسن الفقيه 1984 يومية رقم 1439 ص . 566) التي تتمثل في بيوت وأراض يوقفها بعض الاشخاص خاصة الوزراء للصرف والانفاق على المساجد ، وهناك حساب خاص بالأوقاف أو الاحباس مثلما أشار إليه حسن الفقيه « اليومية رقم (1439 ص . 566)

وقد تطرق علي بك للمفتي وهو المشرف على الأمور الدينية بالمدينة أو مفسر الشريعة ، وتحت تصرفه اثنان من القضاة أحدهما لاتباع المذهب المالكي والآخر لاتباع المذهب الحنفي ، وكان من حق المفتي أن يعيد النظر في قرارات القضاة المتعلقة ببعض الأمور الفقهية مثل الزواج والطلاق وغيرها (بروشين 1991، ص . 160) ويتميز أولئك القضاة بالنزاهة والاستقامة « ليبليك 1816ص . 238 ، ميكاكي 1933 ص . 625) ، أما عن الازدواج المذهبي في طرابلس فان مرده أن المذهب الحنفي وفد مع الاتراك الذين كانوا متعصبين لهذا المذهب بينما كان أهل طرابلس من اتباع المذهب المالكي (بن موسى 1988 ، ص . 65-66) وقد أشار علي بك إلي ذلك ، لهذا فإن القاضي الحنفي كانت له المكانة الأولى ويعين من قبل السلطان العثماني كذلك الحال مع القاضي المالكي الذي يعد نائباً للقاضي الحنفي ، وهناك وثيقة تشير إلى تعيين القاضي الحنفي مصطفى افندي بن موسى عام 1723ف (جحيدر ، 1991، ص . 11) وقد كان أول قاض من طرابلس هو القاضي حسن بن الحاج سليمان التوغار الذي عينه علي القرمانللي في 1768ف وكان من أصل تركي وحنفي المذهب ، ومن هذا التاريخ اصبح القضاة يعينون من قبل باشا طرابلس وكذلك الحال مع المفتي المالكي والمفتي الحنفي (يراجع عن تعيين القضاة حسن 1984 ص . 229 هامش رقم 1 ، بن موسى 1988 ص 253 - 256 ، أبوزبيدة ، 1999 ص . 98) ويذكر الفقيه حسن اسم القاضي الحنفي في عام 1229 هـ الحاج محمد بن باكير افندي (اليومية رقم 152 ص . 229) كما أن الأسرات التي تلقب بالقاضي والنائب ترجع القابها إلى أفراد منهم تولوا منصب القاضي ونائب القاضي في تلك الفترة ، ومما يطيب ذكره في هذا المقام أن الاختلاف المذهبي في طرابلس انعكس على عمارة المساجد فالمساجد التركية (الحنفية أن صح التعبير) تميزت بعمارتها الشاهقة وكثرة زخارفها مثل جامع القرمانللي وقرجي وغيرها ، والأمر خلاف ذلك في المساجد المحلية (المالكية) (يراجع في ذلك : عمورة 1993 ص ص . 390 - 391) .

د . معالم أخرى :

ومن معالم مدينة طرابلس الأخرى التي أشار إليها علي بك اشارات عابرة السجون والفنادق والمقاهي

والحمامات ويمكن بيانها على النحو الاتي : إن السجون كان عددها ثلاثة احدها للاتراك والاثنان الآخران للعرب (الليبيين) وكلها في حالة سيئة وتمويلها رديء ، كما أن السجناء ملزمون بتوفير طعامهم أو العيش على الصدقات العامة (ليبليك 1816 ص . 238، ميكاكي 1933 ص . 625) ويمكن أن نستعرض بعض السجون التي كانت بطرابلس لعل السجون التي تحدث عنها علي بك تكون احدها ، لقد شاعت في طرابلس السجون الخاصة بالأسرى المسيحيين عرفت عند أولئك الأسرى باسم الحمامات لعل اقدمها الحمام القديم أو حمام العذراء ذات المسبحة الذي بناه الوالي صفر داي بين عامي 1613-1615 ويقع مواجها لكاتدرائية السيدة مريم والذي عرف فيما بعد باسم سجن جامع محمود ، وهناك الحمام الجديد (حمام القديس انطونيو) الذي بني قرب باب المنشية في عهد الوالي محمد الساقزلي بين عامي 1640- 1641 ، واستغلت في العهد القرمانلي بعض زنزانات هذا السجن محلات تجارية تمثل جزءاً من سوق الرباع القديم وشملت بعض الزنزانات الأخرى تربة أو مقبرة جامع أحمد باشا (شلابي 1991 ص . 101-102، شلابي 1992ص . 107) أي أنه لم يكن قائماً كسجن عند زيارة علي بك طرابلس ، وهناك حمام (القديس) ميكال الذي بني على انقاض سرايا طورغود في عهد عثمان باشا الساقزلي عام 1664-1665ف وقد اطلق عليه فيما بعد اسم السجن التركي – وعرف محليا باسم الزنزانة – ربما هذا الذي قصده علي بك أنه مخصص للاتراك ، وهناك حمام -(المنداف) الفخ أقامه محمد باشا في المنشية ، وحمام القلعة الموجود بالسراي الحمراء (يراجع عنها : التليسي 1985 ص . 84-87، 97-98، حسنين 1999 . ص . 85-86 ، عمورة 1993 ص ص . 286-287) ، وقد اطلق حسن الفقيه على ذلك السجن بالحبس الدخلاني ،لم يكن مخصصا للرقيق ساكني القلعة مثلما ذكرته الآنسة توللي(توللي ، رسالة بتاريخ 1-11-1783 ص . 95) بل ايضا لاهل طرابلس (حسن 1984ص . ص.191 401 ،507، 508 ، 592)

والسجن الاخير استقر به اسرى السفينة الامريكية المأسورة فيلادلفيا ما بين 1803 – 1805 (كودري 1982اماكن متفرقة) و يذكر حسن الفقيه السجن اللوطي « الزندانة اللوطية »باللهجة العامية الليبية أي السفلية (اليومية رقم 658 ص . 359) إشارة إلى موقع هذا السجن بالنسبة إلى سجن آخر هو الزندانة (الزنزانة) الفوقية أي السجن العلوي (اليومية رقم 1005 ص . 459) وذلك وفقا لموقعهما بالنسبة لمدينة طرابلس ، وربما المقصود بالسجن الأول هو سجن الحمام الجديد (القديس انطونيو) ، والسجن الثاني هو سجن الحمام القديم الذي بناه صفر داي (يراجع في ذلك : شلابي 1994 أ ،ص . 138 – 139) وربما السجون هي التي كان يقصدها علي بك ، وقد كان السجناء ملزمين بتدبير طعامهم عن طريق الأعمال التي يكلفون بها داخل السجن أو خارجه من أعمال زراعية أو قطع صخور أو صناعة حبال للسفن أو الخدمة في قصر الباشا ،كما أن أصحاب الإحسان كثيرا ما ينفقون على تلك السجون لأن الدولة لا تمولها بالشكل المطلوب ولهذا فإن حالتها سيئة عند مكوث علي بك بالمدينة (يراجع عن سجون طرابلس القديمة : شلابي ب ، ص . 89-97)

أما الفنادق فقداكتفى علي بك بالإشارة لوجود بعض منها بالمدينة ، والواقع أنها كانت هناك عدة فنادق عند زيارة هذا الرحالة للمدينة يذكر منها فندق القرقني ، فندق الباشا الكبير (1654 ف) فندق الريح (1671) فندق القرمانلي (1748) ويعكس وجودها النشاط التجاري الذي كان موجودا بالمدينة آنذاك ، وقد أجادت الآنسة توللي (توللي ، رسالة بتاريخ 9-10-1783 ص . 90) وصف ما يجري في تلك الفنادق عند استقبال المسافرين ومغادرتهم في حديثها عن الفندق الذي تولت مصاريف بنائه زوجة علي باشا (يراجع عن تلك الفنادق وغيرها : كورو ، 1990 ص . 83-89، جبران 1999 ص . 64-80 ، الخمسي ، 1999 ص . 81-88 ، عمورة 1993 ص . 301 – 306 شكل 43 ، شلابي 1994 ب ،ص . 81 – 88 ، عمورة 1993 ص ص 301

-306 شكل 43 ، شلابي 1994 ب ، ص ص . 131 - 152 ، شلابي 1994 أ ، ص ص . 216 - 220) .

إضافة إلى الفنادق أشار علي بك إلى وجود بعض محلات الخمر والمشروبات الروحية التي كان يديرها بعض المسلمين وعلى الرغم من ان شرب الخمر محرم قانونا الا ان البعض كان يقدم على ذلك ، وكانت محلات الخمر تقدم للدخل العام حوالي مئة ألف فرنك سنويا (ليبليك 1816 ص . 238 . ، ميكاكي 1933 ص . 625) ، والواقع أن محلات الخمر تلك كانت مفتوحة أصلا للأجانب والمسيحيين المقيمين بالمدينة كما يرتادها أمثالهم ممن كانت لهم إقامة مؤقتة بالمدينة مثل التجار ، أما قول علي بك إن بعض المسلمين يشرب الخمر فيبدو أن المقصود هو شرب اللاقبي أو عصير النخيل وهذا ما أقرته الآنسة توللي وشرحت طريقة استخلاصه من النخيل (توللي ص .. 76 . 133) وهو الشراب نفسه الذي قُدم للطبيب الاسير جوناثان كودري على مائدة البك في 29-8-1804 ف (كودري 1982 ص . 62) ويبدو أن محلات شرب الخمر كانت شائعة ويذكر الرحالة الانجليزي لايون في عام 1918 أن الناس كانوا يجلسون على أبوابها دون تردد (لايون 1993 ص . 22) ولعل المقصود هنا المقاهي وليس محلات الخمور أو الحانات وتوزيعها مجانا علي المسيحيين (حسن 1984 ، اليومية رقم 1308 ص . 34) ويبدو أن الدولة كانت تفرض على تجار الخمور وصانعيها ضرائب وأرباحا جنت من خلالها مئة ألف فرنك عند زيارة علي بك للمدينة ، ويمكن تفصيل ذلك في أن الخمور المستوردة كانت تحتكر تقليديا من قبل الباشاوات عن طريق نظام التعهد لبعض التجار لقاء دفع مبالغ نقدية عالية ، وقد وضع يوسف باشا أثناء زيارة علي بك للمدينة جدولا جديداً ، رفعت بمقتضاه رسوم استيراد الخمو ومن ثم جنت خزينة الدولة أموالا طائلة جراء هذه التجارة (فولايان 1988 ص 89-90) إضافة إلى الاستيراد كانت الخمور تصنع محليا، وقد تحدث حسن الفقيه على ذلك في يومياته (حسن 1984 اليومية رقم 809 ورقم 1397 ص ص . 403، 526) وقد قدرت ضرائب تصنيع الخمور بخمسة عشر الف قرش (فيرو 1994 ص . 414 ، برنيا 1985 ص 272) ووصل دخل الباشا من هذه التجارة واحتكارها عشرين ألف دولار سنويا مثلما أشار إليه بلاكير في عام 1811ف (فولايان 1988 ص . 91) .

أما المقاهي فقد ذكر علي بك **أن التجار كانوا يجرون مقابلاتهم في بيت القهوة (المقهى) الذي يلجأ إليه بعض المتسكعين ايضا ، ويوجد مقهيان آخران تتردد عليهما الطبقة الدنيا من الشعب فقط ولا تقدم تلك المقاهي سوى القهوة الخالية من السكر** (ليبليك 1816 ص . 238 ، ميكاكي 1933 ص . 625) ويفهم من كلام علي بك وجود ثلاثة مقاه بمدينة طرابس واحد لعلية القوم من التجار ، واثنان للفقراء من عموم سكان المدينة ، ومن المؤكد أن المقاهي السالفة الذكر توجد في سوق (بازار) البن الذي أفاضت الآنسة توللي من قبل في وصفها للمقاهي الموجودة به وجعلتها مقصورة على الاتراك وبعض الوجهاء من أهل المدينة للحديث في الأخبار اليومية والشؤون العامة ، وقد وصفت كيفية شربهم للقهوة وتبادلهم الأحاديث الودية (توللي . ص . 62-63) ويبدو أن المقهى الذي يلتقي فيه التجار كان مقهى شيخ البلد الذي كان ملتقى كبراء رجال المدينة وتجارها بشهادة حسن الفقيه - (حسن 1984 ، اليومية رقم 103، و113 ص210 . 216) وكان يقع في سوق الترك وربما هو المقهى الذي يذكر الطبيب كودري أنه وجد الريس مراد جالساً أمامه في 15-12-1803 (كودري 1982 ص . 40) ومن المقاهي التي كانت موجودة بطرابلس مقهى الحاج عبدالله التركي بمنطقة باب البحر محاذية للجمرك وفقاً لوصف حسن الفقيه حسن (اليومية رقم 1037، و1099 ص.467 ،483)

أما الحمامات فلم يشر إليها علي بك صراحة إلا أنه يفهم عند حديثه عن مصادر المياه في طرابلس أنها كانت مزودة بصهاريج لتجميع مياه الامطار للاستفادة منها في الاستحمام وعموماً فعند زيارة علي بك كانت توجد بطرابلس مجموعة من الحمامات من بينها الحمام الكبير (1658) والحمام الصغير أي حمام طورغود ،

وحمام الحلقة (يراجع عن تلك الحمامات : ميسانا 1972 ص . 239 - 242 ، شعبان 1988 ص . 155 - 175 ابوشويرب 1992 ص . 86-90 ، شلابي 1994 ب ، ص . 119 - 129)

هـ . قوس نصر ماركوس «مرقص» اوريليوس :

وكغيره من الرحالة الأجانب الذين زاروا طرابلس وصف علي بك قوس النصر الموجود بباب البحر بقوله هناك نصب رائع قرب منزل القنصل الفرنسي وهو يمثل قوس نصر بني بواسطة الرومان ، توجد به قبة ثمانية الشكل مدعمة باربعة أقواس مقامة على عدد متساو من الدعامات ، بني هذا المبني بكتل حجرية كبيرة استقرت على بعضها البعض اعتمادا على وزنها فقط دون استخدام أية مونة . زخرف هذا النصب من الداخل مثلما زخرف من الخارج بمنحوتات منها أشكال آدمية ، زخارف واكاليل نباتية . . ولكن غالبية تلك المنحوتات مدمرة وما بقى منها مكسور وبدون رابط فيما بينها وعلى الرغم من هذا فانها تبرز جمال ومهارة نحتها أو صنعتها ، يوجد على الواجهتين الشمالية والغربية لهذا النصب بقايا نقش ، يبدو أن النقش نفسه على كلتا الواجهتين وهذه الوضعية قد سمحت للقنصل الدينماركي نيسين أن يتفهم النقش بشكل جيد عندما تمكن من الجمع بين ما نقش على الجانبين وما يظهر على اللوحة 15 يؤكد هذا (ليبليك 1816 ص . 242 ميكاكي 1933 ص . 629 - 630)

والحقيقة أن هذا القوس الرخامي بارتفاعه وزخارفه ومنحوتاته وتفرده بين معالم طرابلس آنذاك قداسترعى انتباه بعض الرحالة المسلمين وغالبية الاجانب الذين زاروا طرابلس قبل علي بك وبعده (يراجع عنهم : عيسى 1990 ص 38-47 ، عيسى 1995 ص ص . 125- 133) ولا يكاد الوصف الذي تركه الرحالة علي بك يختلف كثيرا عن أوصاف الرحالة السابقين له ، ولكن وصفه تميز بالدقة واهتم بالقوس من الناحية الأثرية والمعمارية ولم يلتفت إلى حالته الراهنة على خلاف الكثير من الرحالة الذين وضحوا أنه ظل مستخدماً لأغراض عدة لا تمت بصلة إلى القوس ولا إلى الهدف من إقامته (عيسى 1991 ص . 14 - 34) وقد وصف موقعه بأنه يقع قرب منزل القنصل الفرنسي وهو محق في هذا فهو يقع بمحلة باب البحر غير بعيد عن القنصلية الفرنسية آنذاك قرب جامع قرجي ويبدو أن هذا القوس قد أقيم اساسا عند تقاطع الشارعين الرئيسيين لمدينة طرابلس الرومانية ، أما قوله قد أقامه الرومان فيتصف بالشمولية وبصورة أدق ان هذا القوس بني على نفقة أحد مواطني هذه المدينة وهو المدعو جايوس كالبورنيوس كليسوس تكريما للامبراطورين الرومانيين ماركوس اورويليوس ولوكيوس فيروس بمناسبة انتصارهما على الفرس ، وقد أمكن التعرف على هذا من خلال النقش التدشيني الذي يزخرف الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية من القوس ، ويفهم من حديث علي بك عنه أن القنصل الدينماركي نيسين قد استنسخه ونشره علي بك في كتابه في اللوحة الخامسة عشرة المنشورة مع هذه الدراسة ومما يجدر الإشارة إليه أن هناك بعض الأخطاء قد وقع فيها المستنسخ لذلك النقش لعل سبب ذلك هو محاولة الجمع بين ما نقش على الواجهتين ، ولن يتم التطرق إلى تلك الأخطاء - وهي قليلة - فقد أشار إليها الاستاذ اوريجيما (اوريجيما 1970 ص ص 92- 93وهامش 72) في معرض تعليقه على وصف علي بك لهذا القوس ، ويوجز هذا الرحالة وصفه لهذا القوس بدءا من سقفه المتمثل في قبة مثمنة الاضلاع المحمولة على أربعة أقواس وهو يقصد واجهاته الأربع ذوات الأقواس النصف دائرية المقامة على دعامات يبلغ عددها ثمانياً في كل واجهة دعامتين ، وقد اندهش علي بك مثل الآنسة توللي (توللي ص 64) من الاحجار الضخمة التي بني بها هذا القوس دون استخدام مونة أو ملاط لتثبيت الاحجار بعضها ببعض ، كما أعجب بالزخارف والمنحوتات على واجهاته التي تمثل مشاهد مختلفة نحتت نحتا بارزاً مستمدة أصولها من الاساطير الاغريقية والرومانية (يراجع عنها :ابو حامد والنمس 1978 ص . 50) واذا كان علي بك لم يهتم بايراد وصف لتلك المنحوتات إلا انه أبدى اعجابه بمهارة من

IMP. CÆS. AVRELIO. ANTONINO. AVG·ET·IMP·CÆS·L · AVRELIO.

VERO · ARMENIACO·AVG· SER· CO — S· ORFITVS·PROCOS· CVM·

VTTEDIO·MARCELLO·LEG· SVC·DEDICAVIT· CALPVRNIVS. CELSVS.

CVRATOR·MVNERIS·PVP·MVNERARIVS·IIVIR·QQ·FLAMEN·PERPETVS.

ARCV — MARMORE·SOLIDO·FECIT·

نقش لاتيني نشره علي بك من قوس ماركوس اوريليوس بطرابلس



نقوش قديمة منوعة من لبدة نشرها علي بك

نحتها ودقته وجمالها ايضا

ثانيا : الوضع السياسي :

ليس غريبا أن يهتم علي بك بالحياة السياسية في مدينة طرابلس فهو على أية حال يؤدي مهمة جاسوس من أولى مهامه تجميع المعلومات السياسية عن البلاد التي يحل بها ، ومنها مدينة طرابلس التي اتصل خلال اقامته بها بقناصلة الدول الاجنبية وعلى رأسهم فرنسة ، كما كانت لديه حظوة عند يوسف باشا واتصل بالاسرة الحاكمة بمجرد وصوله إلى المدينة وهذا مكنه من تقديم تفاصيل عن بعض الامور السياسية وعن الاسرة القره مانلية ، فهو يسرد لمحات من تاريخ طرابلس السياسي فيذكر أن حكام المدينة مازالوا يحملون لقب الباشا ، وكانت طرابلس تحكم قبل القرمانليين من باشوات يعينون من الباب العالي يتم تغييرهم كل ثلاث سنوات ، وهناك الكثير من الباشاوات لم تدم سلطتهم طويلاً بسبب الثورات التي تقوم ضدهم فقد ساند الشعب ثورة ضد آخر الباشوات الاتراك التي وقعت منذ حوالي ثمانين عاما مضت وفقا لرواية علي بك أي منذ تاريخ زيارته لطرابلس واختاروا سيدي أحمد القرمانلي أصيل قرمانيا في الأناضول الذي اتخذ لقب باشا واسس الاسرة القرمانللية ، ان ما ذكره هذا الرحالة صحيح حول نهاية الحكم العثماني (التركي) وبداية الحكم المحلي أو القرمانللي لكن التاريخ الذي حدده علي بك بداية لحكم هذه الاسرة يعد خطأ فإن ثمانين عاما من تاريخ زيارته تعادل عام 1725 وهو ليس التاريخ الذي بدأ فيه حكم الاسرة القرمانللية وهو عام 1711 ، ولا يمكن أن يكون علي بك قد نقل عن الآنسة توللي الذي يوافق تاريخ بقائها في طرابلس حوالي ثمانين عاما من بداية تولي القرمانللين السلطة في طرابلس ، ذلك أنَّ كتابها لم ينشر إلا في عام 1816 أي بعد نشر كتاب علي بك بالفرنسية عام 1814 كما أن علي بك يخطىء في تقديمه تسلسل

للباشوات القره مانللين فبعد موت أحمد باشا (1711–1745) تولى ابنه محمد باشا (1745–1754) وليس علي باشا (1754–1795) كما جاء عنده ، ويشير هذا الرحالة إشارة خاطفة للأحداث السياسية قبل تولي يوسف باشا الحكم مثل استيلاء علي برغل الجزائري على الحكم ما بين (1793–1795) واستعاده أحمد باشا شقيق يوسف باشا لحكم طرابلس الذي فقد عرشه وحياته بسبب سوء طباعه ، ويبدو هنا أنه ينقل رأي يوسف باشا في أخيه ذلك أن أحمد باشا كان يتميز بالليونة وهي التي أفقدته عرشه أمام طموح شقيقه يوسف . أما عن حكم يوسف باشا فقد تحدث باستفاضة عن هذه الشخصية بحكم العلاقة التي ربطته بهذا الباشا منذ وصوله طرابلس فبعد ثلاثة أيام من بقائه في المدينة استقبله الباشا في القلعة عن طريق وساطة الريس عمر الذي سعى لتقديمه للباشا ، وقد يكون هذا الريس هو عمر الشلي نائب الريس مراد أمير البحرية في طرابلس لهذا لا غرابة في أن وساطته كانت مقبولة لدى الباشا ، وكانت هذه الزيارة مناسبة جيدة لعلي بك ليقابل الباشا يوسف القره مانللي ويقدم صورة لذلك الباشا ومجلسه وقاعة عرشه ، حيث يذكر أن الاستقبال كان حافلا وقد جرى في قاعة العرش التي يصفها بانها صالة واسعة يجلس الباشا فيها على عرش يحيط به أبناؤه على الجانبين وحاشيته ، وقد استقبله الباشا بكل لطف وترحيب وتشريف ، مع مظاهر الكرم في تناول الشاي والعطور والجلوس على كرسي أمر الباشا بإحضاره له ، وزيادة في مظاهر الكرم والمودة امتنع الباشا أن يقبل علي بك يده عند توديعه وبدلا عن ذلك صافحه صديقا ، وقد عدّ ذلك الامر تشريفا له وحفاوة به لأن العادة جرت بتقبيل أيدي الملوك والباشاوات نوعا من السيادة والسلطة ، **وقد يكون تفسير هذا أن يوسف باشا قد خدع في شخصية هذا الرحالة ولم يشك في القصة التي اختلقها عن نفسه والشخصية التي تخفى فيها .**

وقد وصف علي بك الباشا **بانه في حدود الاربعين من العمر وهو رجل ضخم ذو ملامح لطيفة يتحدث الإيطالية بطلاقة ومغرم بالأبهة والفخامة والمظاهر يتميز بالكرم وعزة النفس والكياسة واللطف في المعاملة وقد تولى الحكم منذ حوالي عشر سنوات ، ويبدو أن الناس مرتاحون معه** (ليبليك 1816 ص . 235 ميكاكي ص 622) وهذه الشهادة تذكرنا بما ذكره الطبيب الامريكي الاسير في طرابلس جوناثان كودري ما بين 1803 – 1805 وتدعو للمقارنة بين ما ذكره الاثنان عن الباشا ومجلسه حيث يذكر كودري عند مقابلته للباشا في 31 / 10 / 1803 انه كان يجلس على عرشه الصغير المزخرف بالطريقة التركية وبدا مظهره جذابا وهو رجل حسن الصورة يبلغ الخامسة والثلاثين تقريبا . . وكان يبدو في غاية الامتنان (كوردري 1982 ص 31) ويبدو أن لا خلاف في انطباع الرجلين حول شخصية يوسف باشا بل يتفقان في الكثير من الجوانب الشخصية والخلقية التي كان يتمتع بها خاصة في معاملته للأجانب والغرباء ، وعلى خلاف ذلك يرى مؤرخ الإرسالية الفرنسيسكانية في سنة 1795 غداة تولي يوسف باشا سدة الحكم أنه ليس بالرجل القاسي ولكنه عنيد مترفع متكبر لا يحترم قناصل الدول الأوروبية (روسي 1973 ص 314–315) ويصفه القنصل الانجليزي وارنجتون في 1–12–1814 بانه كان في الخمسين من عمره قصير القامة سمينا مرتديا ملابس فخمة (ديردين 1976 ص. 231) أما يوسف باشا عند القبطان سميث في عام 1816 فقد كان يمثل مزيجا من الفضائل والرذائل فهو رجل اجتماعي ذكي وأب عطوف وصديق مخلص (روسي 1973 ص . 315) أما الآنسة تولي فهي تصف يوسف باشا في عام 1787 أنه مع صغر سنه متعجرف وشجاع وغير مهذب الخطاب مما ينبىء أنه سيكون شخصية قاسية وذات طبع خطير (تولي رسالة بتاريخ 3–3–1787 ص . 280) وهذه الشخصية القوية الشجاعة المتهورة في بعض الأحيان هي التي أوصلته إلى تولي الباشوية بعد أن قتل وطرد بعض اخوته الذين كان لهم الحق في تولي سدة الحكم ، أما تقدير علي بك لعمر الباشا بحدود الاربعين فهو غير دقيق على أية حال فقد ولد يوسف باشا في عام 1773

ف وذلك استرشادا بما ذكرته الآنسة توللي أنه كان يبلغ سبعة عشر عاماً في رسالة كانت بتاريخ 12-5-1790 (توللي ، ص . 407) أي أنه كان يبلغ اثنين وثلاثين عاما عند زيارة علي بك لطرابلس .

وهناك حاجة إلى وقفة أمام وصف علي بك لحجرة العرش التي قابله الباشا فيها ، ومع أن وصفه يقتصر على اتساع تلك الحجرة الموجودة في القلعة (السراي الحمراء) والتي لا تبعد كثيرا عن الردهة القره مانلية التي تعد من الاضافات التي قام بها علي باشا القره مانللي والد يوسف باشا وفقا لشهادة الآنسة توللي أثناء اقامتها في طرابلس ما بين 1783 - 1793 (الانسة توللي رسالة بتاريخ 3-11-1783 ص 103) ، أما تلك الحجرة التي وصفها الرحالة الانجليزي ليون عام 1818 بانها قاعة فخمة (لايون 1993 . 18) فهي لم تكن كذلك عند تولي يوسف باشا سدة الحكم فقد جردها علي برغل (1793 - 1795) كبقية القلعة من أثاثها ولم تعمر من جديد إلا بواسطة تبرعات الدول الاجنبية حيث حث يوسف باشا قناصلها لتزوده تلك الدول بالأثاث وتعد فرنسة على رأس من زودوه بمطلبه فقد أرسلت للباشا ثلاثة عشر صندوقا من الأثاث (الوافي 1998 ص . 105) ولعل عرش يوسف باشا الذي اهداه له ملك اسبانية فرديناند الثاني هو نفس العرش الذي وصفه علي بك عند مقابلته للباشا ومن قبله الطبيب كودري ، وقد نظمت أجزاء من حجرة العرش وفقا للاسلوب الفرنسي مثل الظلة المذهبة التي شاهدها القنصل وارنجتون عام 1814 (ديردين 1976 ص . 231) .

ولم يغفل علي بك الحياة الشخصية ليوسف باشا فهو يذكر أنه متزوج من امرأتين احداهما ابنة عمه أو خاله والأخرى زنجية ويصف الأولى بأنها كانت ذات ملامح جميلة ، وقد انجب مها ثلاثة أولاد هم « محمد وأحمد وعلي) وثلاث بنات ، أما الزنجية فقد انجبت له ولدا هو « محمد » وبنتين ، هذا ما يذكره علي بك أثناء زيارته لكن ذرية الباشا ازدادت فيما بعد حتى بلغت ثمانية اولاد هم محمد واحمد وعلي ومحمد ومصطفى وابراهيم وعثمان وعمورة إضافة إلى ست بنات منهن عويشة وقميرة وعيشة (وثيقة رقم 37 من كتاب ميكاكي 1961 ص . 93-94 الوثيقة رقم 46 ابن اسماعيل 1966) من عدة زوجات بيض وزنجيات منهنّ ابنة حسونة دغيس وزير الخارجية ، ومريومة بنت حسن داي بنغازي ، ويقوم على خدمته مجموعة من الخدم الزنوج وكان يحب دائماً أن تظهر زوجتاه بملابس فخمة وقد جهز بيت كل واحدة باثاث فاخر وفي هذا الشأن فقد لاحظت الآنسة توللي عند زيارتها إلى جناح يوسف في يوم 29-11-1790 ف أن حجرته الخاصة كانت من افخم حجرات القصر (الآنسة توللي ص . 451) مما يؤكد حبه للترف قبل أن يتولى منصب الباشوية ، وهو نفس انطباع علي بك حول شخصية يوسف باشا المحبة للترف .

ويذكر علي بك أن جميع أبناء الباشا كانوا يحملون لقب باي أو بي (بك) ، ولكن عندما يتحدثون عن الباي أو البك فان المقصود هنا الابن الاكبر وريث العرش ، وعند زيارة علي بك كان يشغل منصب البك ابنه الأكبر محمد الذي ثار على والده عام 1817 ثم عين أحمد بك مكانه ، وكان البك يشغل منصب القائد العام للقوات العسكرية ويساعد الباشا في تسيير شؤون البلاد مجموعة من كبار الموظفين ذكرهم علي بك على النحو الآتي : **الخازندار ، جورداديان باشي « رئيس القصر » . والكاهية « الكيخيا » الكبير والكيخيا الصغير ، والوزير الأول وخمسة من الوزراء في الشؤون المختلفة ، وآغا الاتراك وقائد الفرسان العرب ، وريس البحرية** (ليبليك 1816 ص . 236 ، ميكاكي 1933 ص . 623) . ويمكن بيان وظائف كل منهم على النحو الآتي : **كان الخازندار مشرفا على الشؤون المالية وأمين خزانة الدولة أي المسؤول عن جميع الأموال العامة وعن الجمارك وعن أمور أخرى** تعرضت لها الآنسة توللي بالتفصيل وقد تولى هذا المنصب صهر الباشا المدعو الجيني ومن قبله كان الحاج أحمد آغا الذي قتل في غريان أثناء جباية الضرائب عام 1803 ، أما جوارديان باشي وهذا اللقب يتكون من مقطعين الاول إيطالي

بمعنى حارس والثاني تركي بمعنى رئيس أو كبير وجرت العادة أن يطلق عليه محليا باش ورديان (حسن ، 1984 اليومية رقم 1437 ص . 565) وكان يشغل وظيفة حراس القصر وليس رئيس القصر كما جاء عند علي بك ، ومن بين من شغلوا هذا المنصب في عهد يوسف باشا المدعو سي حسونة باش ورديان (حسن ، نفس اليومية) والكيخيا تعني في التركية المشرف أو المراقب ومن حيث المنصب والوظيفة فهو وكيل الباشا ومستشاره الخاص ويساعد الباشا في أداء الأعمال القضائية ويشرف على تنفيذ جميع القوانين وأوامر الدولة ، ورئيس التشريفات ومربي البك وغيرها من الصلاحيات التي كانت تمنح لهذا الكيخيا الذي كان يقيم إقامة دائمة في القلعة بجانب الباشا حيث يذكر علي بك ومن قبله الآنسة توللي أنه كان للكيخيا الكبير منصة خاصة يجلس عليها في صالة القصر لاستقبال زوار الباشا قبل مقابلتهم له (الآنسة توللي بتاريخ 1-11- ص . 94) وقد شغل هذا المنصب العلج الروسي المدعو محمد ، والعلج اليوناني سليم قرجي صهر الباشا ، والأول قابله وارنجتون في أول زيارة للقلعة في 1 / 12 / 1814 ووصفه بانه كان مرتديا ثوبا من الحرير (ديردين 1976 ص . 231) ولقد كان لهذا الكيخيا وكيل يساعده أنيط به تنفيذ جميع الاحكام العامة داخل القلعة وقائد حراس الباشا ، أما الوزير الأول فقد كان يختار من بين الضباط العسكريين الذين لهم دراية بشؤون الدولة والحكم ، ومن أهم الوزراء الخمسة كان وزير الخارجية ممثلا في محمد دغيس الذي عزل بسبب اصابته بالعمى وقد زاره علي بك وذكر انه رجل محترم بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى وانه يكاد يكون اعمى وقد تجاذب معه احاديث ودية (ليبليك 1816 ص . 232) وقد عالجه الطبيب كودري في 6 / 12 / 1803 وذكر انه كان يشكو من عمى العين اليسرى (كودري 1982 ص . 39) وعند زيارة الرحالة ليون لمحمد دغيس عام 1818 كان فاقد البصر تماما ومعزولا عن منصبه (لايون 1993 ص . 19 ، ص 8 من الاصل الانجليزي) وقد تولى ابنه – والد زوجة الباشا – حسونة دغيس المنصب نفسه ثم عزل فيما بعد وعين مكانه محمد ابراهيم شلبي بيت المال ، أما آغا الاتراك فهو قائد القوات المحلية النظامية وغير النظامية والمشرف على مفاتيح بوابات المدينة وعضو في الديوان وهو يساعد البك مع اعوانه الآغوات (الآغات) في جباية الاعشار والاتاوات من القبائل وفي اخضاع تلك القبائل عندما تنشق عن سلطة الباشا ، وكان تحت سلطتهم مشايخ القبائل الذين من واجبهم الاشراف المباشر على جمع الضرائب من الأهالي والتجنيد وجمع القوات المحلية ، أما قائد الفرسان العرب فهو رئيس وحدة الفرسان النظامية الذين يتم تجنيدهم من القبائل العربية في طرابلس وما حولها وفي العادة كان يختار من الانكشارية ، أما منصب ريس البحرية فقد كان مناظرا للآغا وكان يشرف على البحرية إلى جانب اشرافه على اسطول القرصنة ويعد رئيسا للجمارك و،مراقب حسابات الموانىء **وبسبب اعتماد طرابلس القره مانللية على القوة البحرية لبسط سيطرتها على البحر المتوسط فقد اكتسب ريس البحرية نفوذا سياسيا كبيرا** ومن أهم رياس البحرية في فترة زيارة علي بك لطرابلس كان سيدي أحمد (ابن يوسف باشا) العضو البارز في ديوان الباشا ويأتي في المرتبة الثالثة بعد البك والآغا ، **وكان ريس البحرية بمثابة المستشار الرئيسي للباشا في العلاقات الخارجية مع الدول الاوروبية وكثيرا ما يرسل في مهمات رسمية لتلك الدول** .. هذا هو الجهاز الاداري (مجلس الدولة) الذي كان يساعد الباشا في تسيير شؤون البلاد وهو نظام ورثه يوسف باشا عن اسلافه ولم يدخل عليه أية اصلاحات جوهرية والدليل على ذلك أن التقرير الذي أعده ماركنتينو بوبيتش عن اوضاع حكومة طرابلس في 7 / 2 / 1764 يورد نفس الجهاز الاداري ومهام كل وظيفة من الوظائف التي يتقلدها الموظفون المسؤولون عن تسيير شؤون البلاد (يراجع للمقارنة : كابوفين ، 1988 الوثيقة رقم 24 ص . 293 – 295 ، بازامة ، الدبلوماسية الملحق رقم 9 ص . 200 – 204) وكذلك القائمة التي اعدها القنصل الانجليزي في طرابلس

المدعو فريزر في عام 1767 (يراجع عنها : ديردين 1976 الملحق الثاني ص . 320 - 321) أي أن الجهاز الاداري في عهد يوسف القره مانللي كان نفسه في عهد والده علي باشا (1754-1795) وهناك شهادة أخرى ترجع لنفس العهد تؤكد ذلك وهي ما ذكرته الآنسة توللي عن تلك الوظائف اثناء اقامتها في طرابلس ما بين (1783 - 1793) (يراجع في ذلك : توللي ، رسالة 29 / 11 / 1783 ص. 114 - 117) .

ثالثاً : الوضع العسكري :

أما عن الوضع العسكري فيذكر علي بك أنه **كان يقوم على حراسة الباشا ثلاثمائة تركي ومئة من المماليك الخّيالة ، ويوجد بجانبهم قوات غير نظامية ، ويستدعي الباشا العشائر العربية (الليبية) أثناء الحرب فيأتون باعلامهم وراياتهم تعلو رؤوسهم ويحشدون اربعين الف فارس وعشرة الاف فرس** (ليبليك 1816 ص . 236 ص 623) بالفعل هذه هي القوات العسكرية التي اعتمد عليها يوسف باشا لتدعيم سلطته على أنحاء ليبيا والوقوف ضد التدخلات الامريكية البرية على اثر المشكلة القائمة بين يوسف القره مانللي واخيه أحمد فتكون هذا الجيش في عام 1802 لتحقيق الغرضين السابقين ، قوام هذا الجيش القوات التركية أو الانكشارية المتمركزة داخل المدينة وفي القلعة لحماية الحكم القره مانللي وكان اغلبهم مرتزقة من الجنود والضباط الاتراك جلبوا من الشرق ، يضاف إلى هؤلاء المنشقون الاوروبيون الذين عرفوا باسم المماليك هذه التسمية المحلية التي كانت تطلق على الأوروبيين المنشقين أو الرقيق الأووبيين من جورجيا والقوقاز الذين دخلوا في الإسلام مثلما ذكر الرحالة ليون ومن قبله الآنسة توللي (لايون 1993 ص . 24 توللي . ص 228) وقد استخدموا حرسا خاصا للباشا وأسرته لهذا كانت إقامتهم في القلعة ، وقد شكل هؤلاء سلاح الخيالة أو الفرسان ، ويبدو أن عدد هذه القوات الذي ذكره علي بك كان مقتصرا على المقيمين في القلعة وداخل أسوار طرابلس لأن الوثائق تشير إلى أن عدد القوات النظامية كان 1500 من الاتراك و 12000 من الفرسان في عام 1802 ف (يراجع عن الوضع العسكري : فولايان ، 1988 ص . 62 - 63) أما القوات غير النظامية فهي تلك التي تكونها القبائل ويستدعيها الباشا للمشاركة في الحرب ، ويعد بمثابة التجنيد الاجباري على افراد تلك القبائل الذين يحاربون تحت رئاسة مشائخهم والذين بدورهم يتبعون لقيادة الآغات والبك ، وهي لا تتلقى تدريبات عسكرية ويتمثل أجرهم فيما يتحصلون عليه من الغنائم ثم يعودون لممارسة حياتهم العادية بعد انتهاء الحرب ، وقد قدر عددهم بخمسين الفا واذا كان وصف علي بك مقتضبا عن تلك القوات فإن الرحالة ديلا شيلا ترك وصفا رائعا لتلك القوات كيف كانت تتشكل واسلحتهم وعتادهم ومراسم استعدادهم للحرب والذي شاهده بأم عينه في عام 1817 عندما كانت تجري الاستعدادات لانطلاق حملة أحمد بك ضد أخيه محمد المنشق في برقة (شرق ليبيا) (يراجع في ذلك : دي لاشيلا 1967 ص 21- 32 ، التليسي : 1985 ، ص . 139 - 142) .

ويشير علي بك إلى القوات البحرية بأنها كانت تحت قيادة أمير بحر انجليزي مرتد متزوج من إحدى قريبات الباشا والمقصود هو الريس مراد المنشق والعلج الاستكتلندي بيتر ليلي (PETER LYLE) الذي التجأ في عام 1774 إلى علي باشا خوفا من العقوبة التي سيواجهها بسبب اتهامه بالسرقة من السفينة هامبدن ، وأعلن اسلامه وعينه يوسف باشا في عام 1795 أميرا للبحر في القوات البحرية ، وقد صار صهرا للباشا بعد أن تزوج من إحدى قريباته ، على الرغم من أن البعض يرى أنه متزوج من إحدى بنات الباشا (ديردين 1976 ص . 20) وفي عهده وصلت البحرية الليبية إلى قمة مجدها بما حققته من نجاح بفعل خبرته ومهارته في قيادة الاسطول الليبي وبعد موته يوم الأحد 29 ربيع الأول 1249هـ (1833ف) دفن في مسجد طورغود « درغوث» واتخذ قبره مزارا من قبل سكان طرابلس تكريما لمجهوداته في البحرية الليبية وبطولته في الحرب الليبية الإمريكية . كما ذكر علي بك **أن القوات البحرية تتألف من الزوارق الآتية: فرقاطة بثمانية وعشرين مدفعا وفرقاطة أخرى بستة عشر**

مدفعا ، وثلاث سفن قرصانية (Xebec) لكل منها عشرة مدافع ، وزورق (Saik) به ثمانية مدافع ، وسفينتين شراعيتين (غاليوت) بكل واحدة منهما ستة مدافع ، وسفينة قرصانية صغيرة بها أربعة مدافع ، ومركب مزوّد بمدفع واحد ، وسفينة صغيرة (غاليوت) من ذوات الأربعة مدافع ، أى أن الأسطول يتكون من إحدى عشرة سفينة بها مئة وثلاثة مدافع ، وهناك سفينتان تم البدء في صناعتهما على الرصيف مما يجعل عدد الاسطول ثلاث عشرة سفينة حربية (ليبليك 1816 ص . 236 ، ميكاكي 1933 ص . 623) **والواقع ان يوسف باشا قد اهتم اهتماماً ملحوظاً بالقوات البحرية منذ توليه الحكم باصلاح السفن المعطوبة وبناء سفن جديدة ولم يبدأ القرن التاسع عشر إلا وكان الاسطول يتكون من مجموعة كبيرة من السفن الحربية اسهمت في انتصار الليبيين على الاسطول الامريكي في حرب السنوات الاربع** (يراجع عنها : ابوعجيلة ، 1997 ص . 253-328) وتذكر الوثائق البحرية ان الاسطول الليبي كان يتألف من حوالي ثلاث عشرة سفينة حربية عام 1803 (فولايان 1988 ص . 44) وهذا قريب مما ذكره علي بك عن ذلك الاسطول ومن ثم يتأكد صدق ما ذكره ذلك الرحالة (يراجع عن هذا الاسطول : أبوعجيلة 1997 ص ص 130 - 144) ويبدو أن الفرقاطتين اللتين ذكرهما علي بك تمثلان السفية الاميرالية وسفينة نيابة الاميرالية واللتين يقودهما عادة أمير البحر الريس مراد ومساعده الريس عمر الشلي ، ومن بين التسميات التي عرفت بها بعض قطع الاسطول الليبي السفينة مشهودة والسفينة طرابلس التي كان يقودها الريس محمد سوس . . . وكان لكل سفينة ريس يذكر منهم عمر الشلي وشعبان أفندي والريس محمد الداقيز والريس محمد الزريق والريس محمد سوس والريس علي الكلباش والريس اسماعيل الكيشوني وكانوا كلهم تحت قيادة مراد وريس البحرية .

رابعاً : الوضع الاقتصادي :

يبدو أن الوضع الاقتصادي في طرابلس غداة زيارة علي بك كان في حال حسنة مقارنة بالوضع السيء الذي كان عليه اقتصاد طرابلس في عهد علي باشا القرمانللي (يراجع عنها : الطويل 1999 ص . 180 - 185) ويمكن أن يتضح ذلك من خلال ما ذكره علي بك عن اقتصاد طرابلس عند زيارته لها

ويقوم اقتصاد طرابلس اساسا على الرعي والزراعة ، ومن ثم فهو اقتصاد غير ثابت يتوقف على العوامل المناخية في المقام الأول مما يجعله على غير وتيرة واحدة ، كما أن ذلك الاقتصاد يعتمد بشكل آخر على التجارة التي تعد مصدرا ثانويا يتوقف في الاساس على ازدهار الرعي والزراعة حيث تقايض منتجاتها مع اوروبة إذ يتم استيراد الاسلحة والأقمشة وغيرها إضافة إلى التجارة مع افريقيا وهي تجارة عبور في المقام الأول .

ولم يتحدث علي بك عن اقتصاد طرابلس بشكل مفصل لكن هناك اشارات مفيدة ينبغي التطرق اليها **فهو يشير إلى السوق ويذكر أنه كان مجهزاً بشكل جيد واسعاره مناسبة فالخبز واللحم من النوع الجيد وكذلك الخضراوات متوفرة ومتنوعة**

وينتج البلد زيتاً كافياً للاستهلاك ، وهناك عدة أنواع من الحبوب تستخدم للغذاء ، كان البعض منه - تحصلت على عينات منه - مجلوباً من الجزء الداخلي من افريقيا .. (ليبليك 1816 ص . 239 ، ميكاكي 1933 ص . 626) .

لقد نظر علي بك إلى السوق للحكم على المستوى الاقتصادي للبلد وهي نظرة قاصرة وغير متفحصة عن ذلك الاقتصاد لكنها مفيدة من جوانب أخرى ، وأول انطباع له عن ذلك السوق أنه مجهز بشكل جيد ، ولكن ما المقصود بهذا التجهيز ؟ هل يشمل الناحية المادية والإنشائية أو يعني وفرة الاحتياجات وزيادة العرض ، وقد يكون المقصود الجانبين على حد سواء ، فأسواق طرابلس كانت متنوعة من حيث البضائع والصناعات ومجهزة من الناحية البنائية بشكل جيد (يراجع عن تلك الاسواق : حامد 1992 أ . ص 113-133 عمورة 1993 ص . 293 - 300 شكل 42 ، شلابي 1994 أ ، ص . 161 - 172 ، شلابي 1994 ب ، ص ص . 189 - 219) ويبدو أن علي بك قد زار أسواق طرابلس او بعضا منها مرات عدة ، وشاهد توفر الخبز واللحم

والخضروات بها وكانت من النوع الجيد وبأسعار مناسبة مما يؤكد الازدهار الاقتصادي آنذاك ، وأن إشارته للخبز واللحم تؤكد اعتماد اقتصاد طرابلس على الرعي والزراعة ، ومن الطريف أن علي بك قد أشار إلى الأكلة الليبية المشهورة ألا وهي الكسكسي في معرض حديثه عن الاسواق والغذاء في طرابلس بقوله : إن الكسكسي كان لا يعد بشكل جيد هنا مقارنة بالمغرب (ليبليك 1816 ، ميكاكي 1933 ص . 626) ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الكسكسي من الأكلات التي كانت معروفة في طرابلس منذ فترة طويلة وقد ذكره من قبل العديد من الرحالة لعل أشهرهم النقيب الانجليزي ليون الذي زار طرابلس في 1818 ف وقدم وصفا رائعاً لكيفية اعداد الكسكسي وطبخه (لايون 1993 ص . 46-47) وقبل زيارة علي بك أشادت الآنسة توللي بمهارة الطرابلسيين في اعداد الكسكسي وكان ذلك أثناء إقامتها في طرابلس ما بين 1783 - 1793 ، (توللي ، ب ت ، ص . 104) كما أن حسن الفقيه حسن ذكره في يومياته ، وعلى الرغم من ذلك فإن المغاربة قد يبزون الطرابلسيين في إعداد الكسكسي وفي هذه الحالة تكون مقارنة علي بك دقيقة إلى حد كبير .

وقد أشار علي بك إلى **أن الأرض كانت مشاعا لكل شخص ما عدا تلك المحصورة بسياج التي تعد ملكاً خاصاً ، وهناك بعض السكان من يملك من خمس عشرة إلى عشرين من المزارع لسيجة ، ويقال ان مزرعة الباشا كانت كبيرة جداً** (لبليك 1816 ص 239 ، ميكاكي 1933 ص . 626) وإن هذه الأراضي أو المزارع كانت تنتج ما يباع في أسواق طرابلس ، وقد أنتجت تلك المزارع الزيت من خلال إنتاج أشجار الزيتون بشهادة الآنسة توللي ص . 135) وأنواعاً متعددة من الحبوب لعل أهمها الشعير والقمح التي هي المورد الرئيسي للغذاء ، ويبدو أن المزارع المسيجة كانت تزرع بها الاشجار والخضروات وتعتمد تلك المزارع على مياه الآبار التي تسحب عن طريق البغال اذ تركب بكرات خشبية متحركة على تلك الآبار يربط دلو او قربة من الجلد مثلما شاهد علي بك ، (ويسمى الواحد من تلك الآبار في اللهجة الليبية: السانية والجمع السواني) ومن المؤكد أن هذه الاراضي كانت تقع في منطقة المنشية التي يصفها الطبيب كودري بأنها كانت مقسمة إلى مزارع تتراوح مساحتها من ستة إلى ثمانية فدادين تحيط بها اشجار النخيل وتتخللها اشجار البرتقال والتين والزيتون والليمون وغيرها (كودري 1982 ص . 42) ، ومن بينها مزرعة يوسف باشا التي يصفها علي بك بأنها كبيرة جدا ويذكر كودري أنها كانت تحوي أشجار البرتقال (كودري 1982 ص . 50) وقد أطلق حسن الفقيه حسن اسم السانية الكبيرة (حسن 1984 ص . 460 وغيرها) وكانت تقع جنوب المدينة القديمة قرب زاوية مولاي محمد في الموقع الذي بني فيه المستشفى المركزي او مستشفى ابن النفيس (يراجع شلابي 1994 أ ، ص . 153) ، أما الاراضي التي كانت مشاعة بين الناس فهي تلك الأراضي التي تستغل موسمياً لزراعة الحبوب بالدرجة الاولى وجل عتمادها على الامطار لريها وملكيتها مؤقتة تنتهي بنهاية الموسم ، وهي في الأصل ملك للقبيلة يتناوب افرادها على زراعتها (يراجع عن ملكية الاراضي : ابن موسي . ص 108 - 109) ، ويمكن استغلالها ايضاً للرعي بحيث توفر اللحوم ليس للاستهلاك المحلى فقط بل ايضا للتصدير بجانب ما تجود به مراعي ليبيا الأخرى من مواش كانت تحت سيطرة الدولة بصورة أو بأخرى ، ولعل هذا يشير إلى أن اقتصاد طرابلس يعد اقتصادا رعويا زراعيا بالدرجة الأولى .

أما التجارة فتطرق لها علي بك بقوله : تناهى إلى سمعي أن **الميزان التجاري مع اوروبة كان لمصلحة طرابلس حيث ان قيمة صادراتها تتجاوز ثلث قيمة مستورداتها** ، ولكن التجارة مع الشرق ومع دواخل افريقيا تكون أقل فائدة وليست لمصلحتها مقارنة بما ذكر أعلاه (ليبليك 1816 ص 239 ، ميكاكي 1933 . ص 626) ويبدو أن هذا صحيح إلى حد بعيد فقد اعتمد اقتصاد طرابلس بدرجة كبيرة على التجارة سواء مع اوروبة أو مع الشرق وافريقيا لاسيما أن الرعي

والزراعة لم يعودا المصدر الذي يعول عليه بفاعلية كبيرة لأنه يرتبط بعوامل مناخية غير ثابتة ، لهذا يلاحظ أن يوسف باشا لم يهتم بهذا الجانب من الاقتصاد اهتماماً كبيراً واعتمد بشكل كبير على التجارة وما يتم جنيه من السفن التي يتم الاستيلاء عليها ومن الأتاوات التي تدفعها الدول الاجنبية لسلامة سفنها (يراجع في ذلك : فولايان ص . 87-103) وقد اعتمدت التجارة الخارجية بشكل كبير على التجار اليهود والمالطيين وعلى تجار من مرسيليا وليقوريا والبندقية ، كما يذكر علي بك أن هناك بعض التجار العرب من بينهم محمد دغيس الوزير الأول للباشا الذي تقدر أمواله التي يتاجر بها بمليون فرنك (ليبليك 1816 ص . 239 ، ميكاكي 1933 ص . 626) وقد أدت الظروف المواتية لتجارة طرابلس في هذه الفترة إلى جني أموال طائلة جعلت الميزان التجاري في صالح طرابلس لاسيما تجارتها مع اوروبة المتمثلة في تصدير المواشي وجلودها وضرائب احتكار تجارة الخمور إضافة إلى عائدات المحاصيل الزراعية من زيت وقمح وشعير وتمور وغيرها بعد اكتفاء السوق المحلية (يراجع في ذلك : ابن موسى 1988 ص . 157 و ما بعدها) ويبدو أن التجارة مع افريقيا لم تكن في صالح طرابلس فهذه التجارة المعتمدة علي تجارة القوافل مع دواخل افريقيا لم تشكل دخلا ثابتا لطرابلس ، وتعد طرابلس نقطة عبور تلك التجارة إلى اوروبة ، وهي لم تكن لمصلحة طرابلس بشهادة علي بك لأن الباشا في تلك الفترة لم يؤمن سيطرته على الجنوب من الناحية السياسية والعسكرية ومن ثم لم يستطع السيطرة على تجارة الصحراء على الرغم مما كانت تجنيه طرابلس من تجارة العبيد الذين يجلبون من افريقيا .

ويقدر علي بك دخل يوسف باشا بما لا يزيد عن مليون فرنك في السنة (ص . 235) ويتكون هذا الدخل وفقا لما يذكره فيرو من عوائد الجمرك ، ومن ضرائب الخمور ، ومن الجزية المفروضة على اليهود ، ومما تدفعه الدانمرك والسويد سنويا مقابل تأمين سفنهما التجارية يضاف إلى ذلك الضرائب المختلفة (فيرو 1994 ص . 414) وقد قدر برنيا الدخل العام منها بحوالي 549 الف قرش أو ما يعادل ثلاث ملايين ليرة ايطالية (برنيا 1985 ص . 272) وكانت غالبية هذا الدخل تنفق على الباشا وأسرته والوزراء ومن يشارك في إدارة وتسيير وتثبيت حكم الباشا ، وفي مقابل ذلك لم يصرف إلا النزر اليسير على تنمية البلاد ومن ثم خير العباد .

ومن الأمور التي اهتم بها علي بك وترتبط بالوضع الاقتصادي العملة التي كانت متداولة في طرابلس وقيمتها عند زيارته لها إضافة إلى المكاييل والمقاييس المستخدمة في أسواق طرابلس .

أما العملة فيذكر علي بك أن العملة الذهبية كانت تساوي الآتي : **يساوي الشريفي 48 خمسينا ، وهي اكثر قيمة من بقية العملات الأخرى ، ويساوي نص الشريفي 24 خمسيناً ، ويساوي المحبوب الطرابلسي 28 خمسيناً ، أما العملة الفضية فإن اليوزليك منها يساوى 10 خمسينات وتسوعات الخمسين يساوي 9 وخمسينات مثلما يدل عليها اسمها والخمسين أو البوخمسين وهي قطعة واحدة واكثر شيوعا من البقية يساوي 50 من القروش الخيالية ، و 26 بوخمسين يساوي بالفعل قرشاً إسبانياً واحداً و(نص) الخمسين يكون نصف خمسين مثلما يدل عليه اسمه ، أما البارة فإن 12.5 بارة تساوي خمسيناً واحداً ، أما العملة النحاسية فإن 12.5 بارة تساوي قطعة واحدة من (بوخمسين) و25 بارة أى نص البارة تعمل خمسيناً وهي تكون أصغر عملة متداولة** (ليبليك 1816 ص . 240 مكياكي 1933 ص . 627) .

أما العملة الخيالية فإن خمسين قرشا منها يساوى خمسيناً ، وكلها تكون من نوعية أدنى مرتبة خاصة العملة الفضية التى لا تمثل شيئاً فما هى إلا نحاس مطلي تتراوح قيمتها بشكل نسبي طبقاً للظروف الراهنة ، وأثناء زياراتي كان هناك بعض البارات المتداولة من الفضة الجيدة والتى يعادل وزنها تقريباً نفس وزن بارات النحاس بدون اختلاف في قيمتها ، 12.5 للواحدة منها مثل الاخرى يساوي خمسيناً (ليبليك 1816 ص . 241 ، ميكاكى 1933 ص 627- 628)

هذه وثيقة مهمة من علي بك حول قيمة العملة التي كانت متداولة أثناء مكوثه في طرابلس في شتاء 1806-1807 ولم يسبقه أحد من الرحالة لا قبله ولا بعده إلى هذا الأمر وفي البدء يلاحظ أنه استخدم التسميات المحلية للعملة فهو يذكر الشريفي والخمسين والبارة والنص الشريفي ، بسبب أنه سمعها بهذه الكيفية أثناء تعامله بها مع سكان طرابلس وقد يدل على ذلك أن حسن الفقيه حسن يورد نفس التسميات بتهجئتها المحلية في يومياته (حسن 1984 فهرس العملة ص . 868 - 872) التي لا تختلف عما اورده علي بك ، وتسمية الشريفي يرادفها في العربية الفصحى الأشرفي وهي العملة الذهبية السلطانية التي كانت تضرب في القسطنطينية وفي أماكن أخرى وعرفت المضروبة منها في طرابلس باسم الشريفي الطرابلسي (حسن 1984 ص . 177) ويبدو أن الاشرفي الذي كان متداولاً أيام علي بك هو الذي سكه يوسف باشا في دارسك طرابلس الغرب باسم السلطان سليم الثالث بن مصطفى 1789-1807 ، وقد حملت على الوجه الكتابة الآتية : السلطان سليم خان عز نصره ضرب طرابلس غرب في . . . ، وعلى ظهر العملة تظهر كلمة سلطان البرين ورقم يوضح السنة التى سك فيها السلطان تلك العملة بالنسبة لعدد سنوات حكمه وكان يبلغ وزنها 3.35 من الجرامات ويذكر علي بك أن قيمتها يعادل 48 قطعة من العملة الفضية التي كانت تعرف باسم الخمسين ومنتشرة في مطلع القرن التاسع عشر ، ويعد علي بك أول من أشار اليها ، ويمثل الاشرفي أعلى قيمة من بقية العملات التي كانت تسك في طرابلس وقتئذ ، ويذكر حسن الفقيه حسن أنه كان يساوي 3400 ريال في عام 1806ف (حسن 1984 اليومية رقم 18 ص . 177) وقد سك في عهد يوسف باشا - ولأول مرة - النصف الأشرفي وقد حمل على الوجه الكتابة الآتية سلطان سليم خان عز نصره ، وعلى الظهر ضرب في طرابلس غرب ثم سنة الضرب ، ويزن هذا النصف 1.55 جرام ، ويعادل 24 قطعة من قطع الخمسين الفضية وفقاً لما يذكره علي بك ، ومن العملات الذهبية هناك المحبوب الطرابلسي ، وقد كان المحبوب يعرف باسم زر محبوب أي الذهب المحبوب ، وقد سك يوسف باشا المحبوب منذ عام 1795 وكان يساوي أنذاك 540 بارة (الشركسي 1991 ص . 42) ويعادله علي بك بـ 28 قطعة من قطع الخمسين الفضية أي أنه أعلى في قيمته من النصف الاشرفي ، أما العملة لفضية فإن القطعة الواحدة منها تعرف باسم خمسين أو بوخمسين وهي أكثر العملات تداولا لهذا فإن علي بك اتخذها مقياسا لبقية العملات الأخرى وهي تساوي خمسينا من القروش الخيالية و 26 قطعة من بوخمسين تساوي قرشا اسبانيا واحدا ، وكان القرش الإسباني المنتشر في طرابلس يساوي 5.37 ليرات ايطالية (برنيا 1985 ص 272) ويذكر علي بك أن اليوزليك منها يساوي عشر قطع من بوخمسين الفضية ، واليوزليك هي القطعة النقدية الفضية من فئة المائة أي مائة بارة وكذلك تساوي 2.5 قرش ، ويؤكد حسن الفقيه أن اليوزليك كان قيد التعامل في عهد يوسف باشا (حسن 1984 ص . 339 ، 343) وهناك قطعة فضية يطلق عليها تسعات بوخمسين أي أنها تساوي تسع قطع من بوخمسين الفضية ، وتوجد ايضا وحدة نقدية أخرى من الفضة تسمى نص الخمسين ، وهناك البارة الفضية التي يساوي 12.5 منها قطعة من وحدة بوخمسين ، أما العملات النحاسية فإن وحدتها البارة ويساوي 12.5 بارة نحاسية وحدة بوخمسين ، ، واصغر وحدة نقدية هي نصف البارة والخمسون ، والعشرون منها تساوي قطعة واحدة من بوخمسين (يراجع عن العملة العمثانية في طرابلس : دراسة الايطالي جويدو شيمنو المنشورة في العدد الثالث من مجلة الأخبار الايطالية ص . 115 - 143 ، الشركسي 1991) .

أما المكاييل والمقاييس فقد تطرق اليها علي بك بقوله إن مكاييل مقاييس طرابلس غير متفقة مع تلك الموجودة بالمغرب وهي تتميز بخشونة تركيبتها وترجع إلى نماذج أصلية ، ولقدتوصلت بعد مجوعة من المقارنات المباشرة إلى النتائج الآتية للتصحيح أي أن البيك أو الذراع الطرابلسي بعد قياسها اتضح أنها تساوي 25 بوصة

و9 خطوط من المقياس الباريسي ، ويساوي الرطل 16 أونصاً و 9 دراهم و 54 حبة من المكيال الباريسي ، مكيال القمح يسمى الأوقية (Ouvia) ولكنه يكون غير ملائم جداً بالنسبة لحجمه ، وهم يستعملون بصورة عامة المكيال الذي يمثل الجزء الرابع منه والذي يعرف باسم ربع الأوقية وهو على شكل مخروط خشبي خشن ، ولقد وجدت بعد كل التخفيضات المحتملة أنه يساوي 1200 بوصة مكعبة من المقياس الباريسي ويمكن أن تضاف إليه 130 بوصة ولهذا فهو يحتوي على 1330 بوصة مكعبة ، ومن خلال المكاييل والمقاييس التي قمت بمقارنتها ومن خلال الوسائل التي استخدمتها فإنني واثق من أن نتائجي أكثر دقة من تلك التي ذكرها كتاب آخرون (ليبليك 1816ص . 239 - 240 ، مكياكي 1933 ص . 626 - 627) .

وللأسف لم يحدد علي بك أولئك الكتاب الذين اهتموا بالمكاييل والمقاييس في مدينة طرابلس حتى يمكن اجراء مقارنة مفيدة بالخصوص ، ويستفاد مما ذكره علي بك معرفة مقدار ما تساويه أدوات الكيل والقياس عند زيارته لطرابلس ، **وقد استخدم الليبيون الذراع لقياس الأطوال خاصة الأقمشة ، ومن الطبيعي أن يستخدم الإنسان أطرافه وحدة قياس في ظل غياب أدوات حديثة ودقيقة لعملية القياس تلك ، عموماً تم الاتفاق بين أهل طرابلس على استخدام الذراع وحدة لقياس الاطوال في عمليات البيع والشراء في الاسواق** وهذا يفهم من يوميات حسن الفقيه حسن (حسن 1984 ص . 348) ، إضافة إلى **أن ربات البيوت يستخدمنه عند تجهيز الملابس أو نسج عباءة وما شابه ذلك ، ويعادل طول الذراع محلياً خمسين سنتيمراً** (حنيش 1996ص . 44) ولكن هذا الطول غير دقيق فيمكن القول إن الذراع يساوي نصف المتر تقريباً لأنه على سبيل المثال ما يعرف بالذراع الهاشمي كان يساوي 46 سم فقط (بن موسى 1988ص . 195) وهذا علي بك يقرر أن الذراع الطرابلسي كان يساوي 25 بوصة وتسعة خطوط من المقياس الباريسي أي ما يزيد على الخمسين سنتيمراً ، ومما يجدر ذكره في هذا المقام أنه في العهد الايطالي كان الذراع يساوي 49 سنتمتراً وفقاً لمرسوم صدر في 16/7/1928 (يراجع حسن 1984 الملحق الرابع) مما يؤكد استخدام وحدة الطول نفسها خلال العهد الايطالي .

أما وحدة الوزن المستخدمة فهي الرطل الذي يساوي غداة زيارة علي بك لطرابلس 16 .أو نصا ؟..و 9 دراهم و 54 حبة من المكيال الباريسي أي ما يقرب من نصف الكيلو جرام .

ولعل من أهم المكاييل المستخدمة لوزن الحبوب ما يعرف باسم الأوقية ويذكر علي بك أنها كانت مكيالا للقمح ، ويفهم من يوميات حسن الفقيه حسن أنه مقياس استخدم لوزن الحبوب ، والأشياء العينية ، وكانت الأوقية تعرف محلياً باسماء مختلفة مثل أقة ، وقة ، وقات ، أواق إضافة إلى أوقية مثلما ظهر في يوميات حسن الفقيه حسن (1984 مواضع مختلفة و ص 892) ، **وتعادل الأوقية تقريباً كيلو جراماً وربعاً** ، وقد لاحظ علي بك أن ربع الأوقية هي المكيال الأكثر استخداماً في أسواق طرابلس وهذا شيء طبيعي ومناسب لحركة البيع والشراء المتواضعة من حيث الكمية ، ويصف علي بك مكيال الربع أوقية بأنه مخروطي الشكل مصنوع من الخشب ، وقد قدر وزن الربع أوقية بـ133 بوصة مكعبة وفقاً للمكيال الباريسي أي ما يعادل 320 جراماً تقريباً ومن الطبيعي ألاّ تتفق المكاييل والمقاييس في طرابلس مع تلك الموجودة في المغرب مثلما لاحظ علي بك ، والحقيقة أنه لم تكن هناك معايير معينة متفق عليها بين المدن في البلد الواحد ولا بين الدول البعيدة عن بعضها ولا يشملها إطار سياسي واحد مثل طرابلس والمغرب .

ومما يجدر ذكره حول المقاييس والموازين أنه لم يُعْنَ بها بدرجة كبيرة ولم يتوخَّ فيها الدقة إلا عندما يتعلق الأمر بالمعادن الثمينة كالذهب والفضة لعلاقتهما بالعملة المتداولة ، وكانت تصدر المراسيم الخاصة بأوزان العملة وما يعادلها من الذهب والفضة للمحافظة على قيمتها وعلى الوضع المالي أو الاقتصادي في البلد ، أما ما عداها من المكاييل والمقاييس فقد كان متداولاً بين العامة

في الاسـواق والمعـامـلات الـتـجـارية بادوات بسـيطة لا يتحرى فيـهـا الدقـة وليـست ثابتـة بشكل دقيق بل ان التفاوت يكون ديدنها (يراجع عن المقاييس والمكاييل في العـصـر العـثـمـاني : ابن مـوسى 1988 ص . 193 - 197 ، حنيش 1996 ص 442-46) .

هذه طرابلس ما بين شتاء عامي 1805 - 1806 كما بدت في عيني علي بك في أثناء زيارته المفاجئة لها في أواخر عام 1805 ، ومغادرته لها على متن سفينة تركية في الساعة الواحدة من ظهيرة يوم السادس والعشرين من شهر يناير عام 1806 بعد أن ودع يوسف باشا في لقاء انهمرت فيه دموع علي بك ومودعه وفقاً لما يذكره هذا الرحـالة (لـيـبليك 1816 ص 255) وقـد أمكن من خلال استـخـدام المنهج التـحـليلي المقارن ابراز صورة طرابلس بأبـعـادها المخـتلفـة في عـهـد يوسف باشـا القـرهمـانللي من خـلال مـا ذكره الرحالة الاسباني (دومنجـو باديا ليـبليك) المشـهـور باسم (علي بك العباسي).

المراجع والمصادر

أولاً : العربية :-

ابو حامد ، محمود ، والنمس ، محمود ، 1978 مدينة طرابلس منذ الاستيطان الفينيقي حتى العهد البيزنطي ، طرابلس منشورات مصلة الآثار .

ابوزبيدة ، احلام ، 1999 مبنى دار القاضي " وحوش الباشاوات" آثار العرب 12،11 ص 96-101.

ابوشويرب ، عبدالكريم ، 1992 الحمامات الإسلامية ، آثار العرب 5 ص 81-91 .

ابوعجيلة ، محمد الهادي ، 1997 . النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الاسرة القره مانلية 1711-1835 بنغازي : منشورات جامعة قاريونس

الأنصاري ، أحمد النائب ، 1961 المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب . الطاهر الزاوي (مشرفاً) ج2 ، القاهرة .

الباروني ، عمر ، 1988 طرابلس المدينة : آبار ومواجل ومصانع الماء في التاريخ ، مجلة الوثائق والمخطوطات 3 ، ص . 117-139 .

بازامة ، محمد ، ب ، ت ، الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر ، بنغازي : منشورات مكتبة قورينا .

برنيا ،. كوستانزيو ، 1985 ، طرابلس من 1510 إلى 1850 ، تعريب خليفة التليسي ، مصراته : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع .

بروشين ، ن . 1991 تاريخ ليبيا في العصر الحديث ، ترجمة عماد حاتم ، طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبيين .

بلدية طرابلس 1970 ، بلدية طرابلس في مائة عام 1870 - 1970 ، طرابلس .

البلوش ، علي ، 1982 تطور الاسلوب الزخرفي في معمار المسجد الليبي ، مجلة كلية التربية / جامعة الفاتح 16 ص 9-50 .

البلوش ، علي ، 1989 ، تطور الاسلوب الزخرفي في معمار المسجد الليبي ، في موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا ، ج2 ، طرابلس : منشورات مصلحة الآثار وجمعية الدعوة الإسلامية

ابن اسماعيل ، عمر ، 1966 ، انهيار حكم الاسرة القره مانلية في ليبيا 1795-1835 ، طرابلس : مكتبة الفرجاني .

ابن موسى ، تيسير 1988 المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني ، طرابلس وتونس : الدار العربية للكتاب .

بيتشي ، الأخوان ، 1997 . الاخوان بيتشي والساحل الليبي 1821-1822، ترجمة الهادي أبولقمة ، بنغازي : منشورات جامعة قاريونس .

تكر ، جلين . ب ت معارك طرابلس بين الاسطول الليبي والاسطول الأمريكي في القرن التاسع عشر ، ترجمة عمر ابوحجلة طرابلس : مكتبة الفرجاني

التليسي ، خليفة ، 1985 حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ط2 طرابلس وتونس : الدار العربية للكتاب .

توللي ، ريتشارد ، ب ت عشر سنوات في بلاط طرابلس ، طرابلس : مكتبة الفرجاني .

التيجاني ، ابومحمد عبدالله احمد ، 1981 ، رحلة التيجاني ، طرابلس وتونس : الدارالعربية للكتاب .

جبران مفيدة ، 1997 الاسواق في المدينة القديمة ، آثار العرب 10،9 ص 114 - 125 .

جبران مفيدة 1999 فنادق طرابلس العريقة ، آثار العرب 12،11 ص 66-80 .

جحيدر ، عمار ، 1991 آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث ، طرابلس : الدار العربية للكتاب .

حامد ، سعيد 1978 المعالم الإسلامية بالمتحف الإسلامي بمدينة طرابلس ، طرابلس : منشورات مصلحة الآثار

حامد ، سعيد ، 1991 مساجد مدينة طرابلس القديمة، تراث الشعب ، 26ص . 58-67.

حامد ، سعيد ، 1992 أ . التجارة والأسواق في طرابلس عبر التاريخ ، تراث الشعب ، 29 ص 113-133 .

حامد ، سعيد ، 1992 ب ، اليهود في طرابلس عبر العصور ، تراث الشعب ، 31 ص 73-83

حامد ، سعيد ، 1999 حياة اليهود في طرابلس خلال قرنين ، تراث الشعب ، 44-45 ص 65 - 80 .

حسن ، حسن الفقيه 1984 اليوميات الليبية ، ج1 1551 - 1832 ، تحقيق محمد الاسطى وعمار جحيدر ، طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبيين .

حسنين ، علي الصادق 1999 من معالم مدينتنا القديمة : سراي طورغود باشا ، آثار العرب 11ص . 81-87

حنيش ، الهادي (1996) أدوات ومعايير الكيل والقياس في التراث الشعبي الليبي ، تراث الشعب ، 35ص ص 42-46 .

الخباط ، عبدالله 1985 العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وانجلترا 1795-1832 ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع : طرابلس .

خشيم ، علي فهمي (تحقيق) 1974 ، الحاجية من ثلاث رحلات في البلاد الليبية ، طرابلس : منشوروات دار مكتبة الفكر .

الخمسي ، فاطمة (1999) فندق القره مانلي بالمدينة القديمة بطرابلس ، تراث الشعب 44، 45 ص ص 81-88 .
راي ، ادوارد ، 1968 المغرب العربي في القرن التاسع عشر 1877 ، ترجمة مصطفى جودة ، طرابلس : منشورات دار الفكر
روسي ، إيتوري ، 1973 ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 تعريب خليفة التليسي ، بيروت : دار الثقافة .
دي لاشيلا ، باولو ، 1967 أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة في عام 1817 ، ترجمة الهادي أبولقمة ، طرابلس : منشورات دار الفكر
رومانيللي ، بيترو ، 1991 منازل عربية قديمة بطرابلس ، ترجمة فؤاد الكعبازي ، آثار العرب 2ص 10-16 .
زيادة ، نقولا ، ليبيا بين حسن الوزان والتمغروتي ، ليبيا في التاريخ ، فوزي جادالله « محرر » المؤتمر التاريخي بالجامعة الليبية 1968 بيروت ، ص 249 – 271.
السباعي عبداله ، 1990 تراث الاغنية الشعبية في ليبيا ، تراث الشعب 25 ، ص 22-34
الشركسي ، محمد مصطفى ، 1986 مدينة طرابلس منذ أكثر من مائة عام ، تراث الشعب 6 ص 34-41 .
الشركسي ، محمد مصطفى 1991 ، سك وتداول النقود في طرابلس الغرب 1551 - 1911 ، طرابلس : مركز جهاد الليبيين .
شعبان ، فاروق ، 1988 عمارة حمام ضرغوت بطرابلس بين الأسس الهندسية والجمالية ، البحوث التاريخية ، السنة العاشرة العدد الأول
شقلوف ، مسعود (وآخرون) 1980 الآثار الاسلامية في ليبيا ، ج1 ، طرابلس : منشورات مصلحة الآثار .
شلابي ، سالم ، 1990 البسة على مشجب التراث ، مصراته : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان .
شلابي ، سالم ، 1991 طرابلس تبحث عن موقع جامعها الاعظم ، تراث الشعب 26 ، ص 98-109
شلابي ، سالم 1992 مستدركات وتعليقات حول : التجارة والاسواق في طرابلس عبر التاريخ ، تراث الشعب 31، ص 102-109 .
شلابي سالم ، 1994 أ عناوين على نواصي المحروسة طرابلس القديمة ، طرابلس ، دار الفرجاني للنشر .
شلابي ، سالم 1994 ب ، معالم المدينة البيضاء مدينة طرابلس القديمة ، طرابلس ، دار الفرجاني
الطويل ، امحمد ، 1997 القرصنة بين تاريخين 1504 – 1830 ف الثقافة العربية 11-12س 25 ، ص ص 16-18 .
الطويل ، امحمد ، 1999 الاوضاع الاقتصادية في ليبيا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، الفصول الاربعة 88 ، ص 180 - 185 .
عمورة ، علي الميلودي ، 1993 ، طرابلس المدينة العربية ومعمارها الاسلامي ، طرابلس ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع .
عيسي ، محمد علي ، 1990، قوس ماركوس اوريليوس عبر العصور ، تراث الشعب ، 24 ص 38 - 47 .
عيسي ، محمد علي ، 1991 هل تم تحويل قوس ماركوس اوريليوس بطرابلس إلى مسجد في العصور الوسطى ، اثار العرب 2 ،ص 24-34 .
فولايان ، كولا 1988 ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القر مانللي ، ترجمة عبدالقادر المحيشي ، طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبين .
فيرو ، شارل ، 1994 الحوليات اللليبية ، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي ، ط 3 ، بنغازي : منشورات جامعة قاريونس .
القره مانلي ، محمد بهجت ، 1983 " تقاليد اطلاق المدافع في كبريات المدن في العهد العثماني الثاني " تراث الشعب 10 ، ص 167 - 168 .
كابوفين ، جورجو 1988 طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر ، ترجمة عبد السلام باش امام ، طرابلس : منشررات مركز جهاد الليبيين .
كاوبر ، هـ . ب ت . مرتفع إلاهات الجمال ، ترجمة انيس زكي حسن ، طرابلس : مكتبة الفرجاني .
كورو ، فرنشيسكو ، .1990 . الفنادق الطرابلسية القديمة المميزة ، ترجمة محمود التائب ، اثار العرب 1 ، ص 83-89 .
كودري ، جوناثان ، 1982 يوميات الطبيب جوناثان كودري في قلعة طرابلس الغرب 1803 - 1805 ، ترجمة وتعليق عبد الكريم ابوشويرب ، طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبيين .
اللافي ، جمال ، 1997 نحو رؤية جديدة ومعاصرة لفهوم البيت الاقتصادي من خلال دراسة الحوش الطرابلسي. آثار العرب 10،9 ص 78-87 .
لايون ، ع ، ف 1993 مدخل إلى الصحراء ، ترجمة الهادي أبولقمة ، بنغازي منشورات جامعة قاريونس .
مكي ، الطاهر ، 1988» " أول رحالة اسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر « الفكر العربي 51 ص 172-198 .
ميسانا ، غاسباري ، 1972 المعمارالإسلامي في ليبيا ، ترجمة علي الصادق حسنين ، طرابلس : الناشر مصطفى العجيلي .
مشروع وتنظيم وإدارة المدينة القديمة طرابلس ، 1998 نماذج من الفنون والعمارة الاسلامية بمدينة طرابلس القديمة ، طرابلس .
ميكاكي ، رودلفو ، 1960 طرابلس تحت حكم الاسرة القره مانللية ، ترجمة طه فوزي ، القاهرة .
هاشم ، عياد ، 1999 فنون مدينة طرابلس المعمارية ، آثار العرب 11، 12 ص 56-65.
الوافي ، محمد عبدالكريم ، 1998 ، يوسف القره مانللي والحملة الفرنسية على مصر ؛ ط، بنغازي : منشورات جامعة قاريونس .

ثانياً : المراجع الاجنبية :-

Aurgimma,S . 1970 LصArco Quadrifronte Di Marco Aurelio .
E Lucio Vero in Triopoli, Suppl . To Libya Antiqua . (1970اوريجيما)
Dearden , S . 1976 A Nest of Corsairs . London (1976ديردين)
E1 - Ballush A.1984- A History Of Libyan MosqueArchiecture , Tripoli (1984 البلوش)
E1- DARS , M.Z.& Said , S.Z, (1972) Libyan Court Houses
Bulletin of the Faculty of Engineering (Univesity of Libya)

Vol . 1 no . 4 , pp . 191 - 223 (1972 مجلة كلية الهندسة)

Micacchi,R 1933 Le Straodinaire Avventure Di Domingo Badia Y Leblich E Il Su Soggiorno A Tripoli Di Barberia Nell' lnverno 1805 - 1806, Rivista Delle Colonie italiane , N.8-9 pp . 617 - 642 , 703 - 719 . (1933ميكاكي)

Romano , J . 1951 , Viajes De Ali Bey El Abbasi , Madrid (1951رومانو)

Warfelli , M1976 . The Old City Of Tripoli , in Some Islamic Sites in Libya, Department of Antiquities ,Tripoli :pp.1-18.(1976الورفلي)

Leyblich,B1816 , 1970 . Travls of Ali Bey in Morocco,Tripoli Cyprus ,Egypt, Arabia Syria and Turkey 1803 -1807,London:.(1816 ليبليك)

تراثُ الشعب

فصلية . متخصصة . مُحكّمة

السنة الثالثة والعشرون – العددان : 1–2 « مسلسل 49–50» 1371 و.ر – 2003 ف

رحالة وجاسوس تظاهر بالإسلام وحجّ وأقام بطرابلس



فُصحى تدرَّجت .. ثم تفصَّحت!؟

بنغازي في أول تحقيق صحفيّ مصوّر